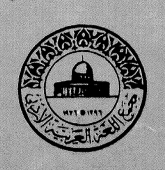


الموسم الثقافي الخامس
لمجمع اللغة العربية الأردني

السبت ٢١ رجب ١٤٠٧هـ - السبت ٢٠ شعبان ١٤٠٧هـ
٢١ آذار ١٩٨٧ - ١٨ نيسان ١٩٨٧م



من منشورات مجمع اللغة العربية الأردني

١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

اهداءات ١٩٩٨
المعهد الدبلوماسي الأردني
الأردن



الموسم الثقافي الخامس
لمجمع اللغة العربية الأردني

الطبعة الأولى

عمان - الاردن
١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

مقدمـة الكتـاب

دَأَبَ مجمعُ اللغة العربية الأردني في العمل على دعم الحركة الثقافية في الأردن بخاصة، وفي العالم العربي كله بعامة، مثلما دأب في خدمة اللغة العربية المجيدة، وتعزيز مكانتها والعمل على رفع مستوى التعبير بها في فئات المجتمع كلها.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف النبيل، اتخذ المجمع وسائل عدة، منها عقد موسم ثقافي سنوي، في فصل الربيع من كل عام، لمدة خمسة أسابيع، يدعو إليه نخبة من العلماء الأجلاء من أقطار العالم العربي، يحاضرون ويتحاورون في قاعة المجمع، ومن ثَمَّ تُطبعُ محاضراتهم وندواتهم في كتاب مستقل يحمل عنوان: الموسم الثقافي السنوي.

وهذا هو كتاب الموسم الثقافي الخامس لمجمع اللغة العربية الأردني أقامه المجمع في المدة الواقعة بين ٢١ رجب ١٤٠٧هـ الموافق ٢١ آذار ١٩٨٧م و ٢٠ شعبان ١٤٠٧هـ الموافق ١٨ نيسان ١٩٨٧م.

وكانت محاضرات هذا الموسم وندواته كما يلي:

- المحاضرة الأولى، مساء السبت في الحادي والعشرين من شهر رجب لعام ١٤٠٧هـ الموافق للحادي والعشرين من شهر آذار لعام ١٩٨٧م.
  وكانت بعنوان: «التقنيات الحديثة واللغة العربية» للأستاذ الدكتور ظافر الصوّاف، المدير العام للمنظمة العربية للمواصفات والمقاييس (سابقا).
- المحاضرة الثانية، مساء السبت في الثامن والعشرين من شهر رجب لعام ١٤٠٧هـ الموافق الثامن والعشرين من شهر آذار لعام ١٩٨٧م.
  وكانت بعنوان: «اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية» للأستاذ أنور الجندي.
- المحاضرة الثالثة: مساء السبت في السادس من شعبان لعام ١٤٠٧هـ الموافق للرابع من نيسان لعام ١٩٨٧م.
  وكانت بعنوان: «المشافي والتمريض في التراث الطبّي الاسلامي»، للأستاذ الدكتور أكرم الدجاني، الأستاذ في كلية الطب بالجامعة الأردنية.
- المحاضرة الرابعة، مساء السبت في الثالث عشر من شعبان لعام ١٤٠٧هـ الموافق للحادي عشر من نيسان لعام ١٩٨٧م.
  وكانت بعنوان: «كتابة التاريخ عند العرب، المنهج والفكرة»، للأستاذ الدكتور عبد العزيز

الدوري ز الأستاذ في كلية الآداب بالجامعة الأردنية وعضو مجمع اللغة العربية الأردني .

- ندوة الموسم الثقافي ، مساء السبت في العشرين من شعبان لعام ١٤٠٧ هـ الموافق للثامن عشر من نيسان لعام ١٩٨٧ م .

وكانت بعنوان « دور وسائل الاعلام في إشاعة اللغة العربية الفصيحة وقد أدارها الأستاذ الدكتور محمود ابراهيم ، الأستاذ في كلية الآداب بالجامعة الأردنية ، وعضو المجمع .
وشارك فيها الأستاذ محمود الشريف رئيس مجلس إدارة الشركة الأردنية للصحافة والنشر . والأستاذ أحمد العناني .

ويحرص المجمع على اغتنام كل فرصة للعمل على نشر اللغة الفصيحة وإيصالها للناس سليمة مشرقة واضحة ، ولذا فقد اهتم بتأكيد دور وسائل الاعلام في تعليم اللغة ونشرها، وإظهار صورتها للناس، وإسماعهم الأنماطَ اللغويةَ التي يتأثرون بها ويتعلمون منها المفردات الجديدة والتراكيب اللغوية الصحيحة .

وقد حرص أيضا على بيان الصلة الوثيقة بين ماضي هذه اللغة وحاضرها ، وأنها لغة حية متطورة حملت العلم والحضارة في الماضي ، وما تزال قادرة على حملها في الحاضر إذا أخلص أبناؤها العملَ في سبيل إحياء اللغة في قلوب الناس وبثّ الاعتزاز والتقدير والرغبة في التحدث بها وَجَعْلِها لغةَ العلم والبحث والدراسة والتحصيل في مستويات الدراسة كلها .

ويتقدم المجمع بالشكر إلى الأساتذة الباحثين المتخصصين ، الذين تعاونوا معه في هذا الموسم الثقافي وقدموا خلاصة علمهم وتجاربهم ، كما يشكر الجمهور الكريم الذي حرص على شهود المحاضرات والافادة منها ، واغنائها بمشاركته في النقاش والحوار الذي كان يلي كل محاضرة منها .

ويتوجه المجمع بشكره وتقديره إلى وسائل الاعلام الأردني كلها : وكالة الأنباء الأردنية (بترا) والتلفاز الأردني والاذاعة والصحافة الأردنية لحضورهم المستمر ، وتعاونهم الكبير من أجل نشر أنباء هذا الموسم الثقافي واعلانها على الناس ، داخل الأردن وخارجه .

ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا جميعا لما فيه خدمة لغتنا العربية الشريفة ، وهو جل شأنه نعم المولى ، ونعم النصير .

رئيس المجمـع
الدكتور عبد الكريم خليفة

المحاضرة الأولى

التقنيات الحديثة واللغة العربية

للدكتور محمد ظافر الصواف
المدير العام للمنظمة العربية للمواصفات والمقاييس (سابقا).
السبت ٢١ رجب ١٤٠٧هـ / ٢١ آذار ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان من كرم السيد رئيس مجمع اللغة العربية الأردني وحسن ظنه أن دعاني للحديث في هذا المجمع الموقر عن التقنيات الحديثة واللغة العربية. ولقد ترددت في قبول الدعوة لأنني آثرت بعد انتهاء دوري في المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس أن أنصرف الى التطبيق الصناعي، اعتقادا مني بأن ما ينقص بلادنا هو التقنية، والعمل الى جانب الفكر، وأنا فوق ذلك لست من الضالعين في اللغة، فكيف أقف متحدثا في مجمع لغوي. ولكنني رأيت أنني قد عاصرت تجربةً في موقعي في المنظمة ذاتَ فائدةٍ للغة العربية فلْاقف شاهداً، «ولا يأبَ الشهداءُ إذا ما دُعوا». فقبلت دعوة الأخ الكبير شاكرا، رغم يقيني بأنني لن أفِ الموضوع حَقهّ، ولكنْ ما لا يدرُك كله لا يتركُ جُلّه.

١- مقدمة: استُعملت كلمة التقنيّة أو التقانة لتقابل كلمة التكنولوجيا التي يمكن أن نعرّفها بايجاز بأنها علم التطبيق. وتحمل التقنية الآن معنى آخر هو: **أسلوب عَمَلي محدد يُستخدم لغرض معين**. فهناك تقنية الحاسوب، وتقنية الطباعة، وتقنية الاتصالات، وتقنية الفضاء، وغيرها.... فالتقنيات الحديثة هي هذه الأسباب العملية التي تطورت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بشكل خاص، ومن أهمها:

تقنية الحاسوب	Computer Technology
تقنية الاتصال عن بعد	Telecommunication
تقنية الروابط (استخدام الآلة بديلا عن الانسان)	Robotics
تقنية الحيوية	Biotechnology
تقنية الليزر	Laser (الاشعاع بموجة واحدة)
الانقسام النووي	Nuclear Fission
الالتحام النووي	Nuclear

واذا دقق الانسان في مختلف حقول التطبيق فانه يجد تقنيات حديثة كثيرة يختلف مدى الاستحداث فيها، وقد تكون تطبيقات لاحدى التقنيات السابقة في مجال من المجالات.

واذا نظرنا الى الدور الذي تلعبه هذه التقنيات في خدمة اللغة نجد أنّ تقنيات الطباعة، والحوسبة والاتصالات قد قامت بدور كبير في نشر اللغة وحفظها ونقلها، ويؤمل لها أنْ تقومَ بدور أكبر.

ونقف هنا لنتساءل هل التقنيات مقصورةٌ على الوسائل المادية؟ أليس التنظيم – في العمليات الحربية أو أساليب الادارة مثلا – من التقنيات التي تؤدي إلى تفوق الأمم؟ فلْنُدْخِلِ أيضا في إعداد التقنيات: المنظماتِ الدوليةَ – المنظمة الدولية للتقييس «ايزو» مثلا – وطرق عمل لجانها واتخاد القرار فيها. ولنُدْخِلْ كذلك تقنية وضع المصطلحات واقرارها.

واذا نظرنا الآن من الجانب الآخر الى دور اللغة في خدمة التقنيات وتقدمها نجد اللغة تخدمها جميعا. ذلك أن اللغة هي الوعاء الذي يحمل هذه التقنيات وينقلها مكتوبة أو مطبوعة، منطوقة أو مسجلة. فالى أيّ مدى قامت لغتنا العربية بدورها في خدمة التقنيات وتعلمها ونقلها؟ وهل قصّرت في نقل الأفكار التي تحملها إلينا التقنيات الحديثة؟ وأتكلم عن تجربتي الشخصية في هذا المجال فأرى أنني قد تعلّمت وعلّمت العلوم والصناعات باللغة العربية فلم أجد صعوبة سوى أنني أحتاج إلى التفتيش عن المصطلح المناسب أو صياغته بنفسي. إن التدريس باللغة الاجنبية أسهل دون شك، إذ يجد الأستاذُ الكتابَ الأجنبي جاهزا وفي أكمل وأجمل صورة. أما الكتاب العربي فكان عليّ أن أتعب في إنشائه وطباعته. وأشير هنا إلى ما كتبه مؤخرا الأستاذ المهيرى في مجلة تونسية جديدة هي مجلة المعجمية. يقول: «والمشكل الذي ينبغي أن يطرح اليوم بالنسبة الى اللغة العربية لا يتمثل في مدى قدرتها على أن تسع مفاهيم الحضارة الحديثة وتواكب ما يبتكره العلماء... فالتساؤل عن مثل هذا لا معنى له من وجهة نظر اللغوي أو هو يدل على نظرة ساذجة للامور.
إنما المشكل الأساسي في حقيقة الأمر يكمن في مدى نصيب العرب من التجربة البشرية ومدى إيمانهم بقدرتهم على التحكم فيما حصل منها وعلى المساهمة في إثرائها... أو

بعبارة أخرى هو في اعتبار أنفسهم أطرافا في التجربة البشرية يأخذون منها كما يأخذ غيرهم ويبلغونها بلغتهم كما يبلغها غيرهم بلغته [١].

٢ - تقنية التنظيم الدولي وطرق اتخاذ القرار :

إن المنظمات التي أحدثتها الجامعة العربية تدريجيا خلال الأعوام العشرين الماضية أربطة فكرية وانسانية تشد بلدان العالم العربي، تشده الى التواصل والتعارف والتعاون وتشده إلى التطورات التي تجري في منظمات دولية مماثلة. والمنظمة العربية للمواصفات والمقاييس هي إحدى هذه المنظمات، وتشارك في عضويتها سبع عشرة دولة عربية. معنى ذلك وجود تمثيل رسمي لهذه الدول في اللجنة العامة للمنظمة وفي اللجان الفنية — ٣٣ لجنة — التي شكلتها لوضع المواصفات. معنى ذلك سريان مواصفات المنظمة عبر هيئات المواصفات العربية إلى الادارات الرسمية والشركات وعامة الناس. والمواصفات تحمل معها بشكل طبيعي لغة موحدة واصطلاحات موحدة بالاضافة الى التكنولوجيا الموحدة. إنّ المنظمة الدولية للتقييس «إيزو» تقوم بهذا الدور منذ أن أعيد تنظيمها بعد الحرب العالمية الثانية، تعمل في نطاقها مائة وستون لجنة لاصدار المواصفات الدولية التي تنشر الفكر التكنولوجي الغربي، وتربط بين اللغات الكبرى السائدة في العالم عن طريق وضع المصطلحات المتقابلة وتعاريفها. لقد أصدرت إيزو حتى الآن ستة الآف مواصفة تقريبا، منها ثلاثمائة مواصفة خاصة بالمصطلحات. أما المنظمة العربية للمواصفات فقد أصدرت حتى الآن نحو ثمانمائة مواصفة منها أربعٌ وأربعون في المصطلحات. إن هذا التيار من نقل المعرفة التقنية وتوحيد مصطلحاتها من الاساليب القوية في توحيد لغتنا ونموها. وهذه المصطلحات لا تبقى في برج عاجي إذ إنها توضع بالتعاون مع العاملين في المجالات المختلفة. فالمنظمة الدولية للتقييس تشارك في عملها ٤٠٠ منظمة دولية، تعمل كل حسب اختصاصها، في وضع المواصفات واقرارها وتطبيقها، بما في ذلك وضع المصطلحات.

وقد حَرَصَتْ المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس على مثل هذه المشاركة على المستوى العربي — والدولي عند اللزوم — فشاركت في أعمال اللجان الفنية للاتحادات العربية المختلفة. وتقوم كثير من هذه الاتحادات بوضع معاجمَ متخصصةٍ في نطاق عملها. إن بعض هذه الاتحادات لم يملك بعدُ القوةَ والدعمَ الكَافيين لانتاج ثري، ولكن

الاتجاه نحو التعاون مع هذه الاتحادات، وتنسيق الجهود معها اتجاه سليم.

ان وضع المصطلح العربي واجب لا تنفرد به المجامع العربية ولا المنظمات ولا الاتحادات، ولكن مظلة هذا الواجب تتسع أو تضيق. فالمجامع تعنى بجميع فروع المعرفة، ومنظمة المواصفات تعنى بالفروع التطبيقية. والمنظمات الأخرى والاتحادات تعنى كل منها بما يتعلق باختصاصها. ومن الضروري وجود جهاز مركزي ينسق بين هذه الجهات. نعم هناك مكتب لتنسيق التعريب في المغرب، وهناك اتحاد لمجامع اللغة العربية، وقد قاما دون شك بجهد مشكور، ولكنه غير كاف. وأعتقد ان هناك حاجة الى تنسيق أكبر لجهود الاثنين، والى دعم مادي وبشري لهما ليقوما بالدور الذي تقوم به مراكز مماثلة تخدم اللغات الغربية.

وجدير بنا أن نطلع على الجهود التي تبذلها فرنسا وكندا مثلا في خدمة اللغة الفرنسية. ان هناك لجنة عليا للغة الفرنسية في باريس، المسؤول عنها مباشرة رئيس مجلس الوزراء، ولها نشاطات تمتد الى جميع الدول الناطقة كليا أو جزئيا باللغة الفرنسية. وفي كندا جهود كبيرة لخدمة اللغة الفرنسية، أورد فيما يلي أهم الأدلة عليها:

أ . هناك مكتب حكومي للترجمة يستخدم ١٢٠٠ مختص لغوي، تبلغ ميزانيته السنوية ٨٥ مليون دولار.

ب . يعمل في مكتب اللغة الفرنسية في كويبك ٣٠٠ موظف، وتبلغ ميزانيته ١٤ مليون دولار، وتشارك الصناعة في النشاط اللغوي بحيث يبلغ مجموع العاملين فيه ما بين ٢-٣ آلاف شخص ويصل الانفاق الى ٣٥ مليون دولار سنويا.

جـ . هناك لجنة رقابة مهمتها السهر على تطبيق القوانين الخاصة باللغة.

د . يدرّسون المصطلحية (علم المصطلح) في جامعة لافال حتى درجة الدكتوراه ويقوم فيها نشاط كندي ودولي كبير في موضوع المصطلحات. ترى هل ندرك أن اللغة العربية هي بمثابة جيش حمىٰ ويحمي حدود الأمة العربية والاسلامية، ونعاملها على هذا الأساس!

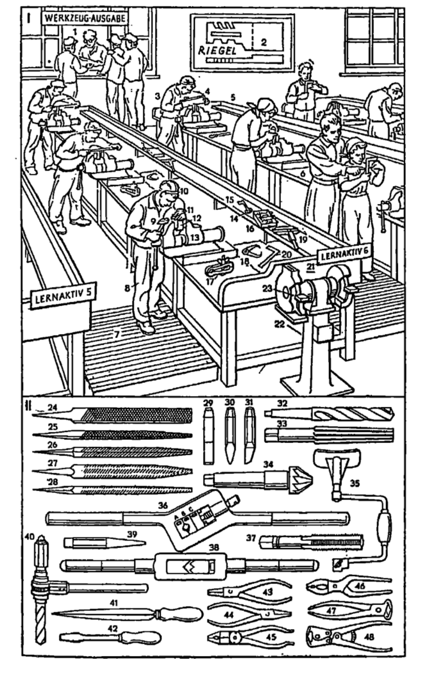
والخلاصة هي أن أسلوب العمل الذي تتبعه الايزو هو تقنية من التقنيات الحديثة نستطيع استخدامها لادخال المصطلحات الجديدة التي يطلع بها علينا

الغربي الصناعي كل يوم. وهي تمتاز بالمشاركة الواسعة لذوي العلاقة بالمصطلح، واستمرارية العمل. وقد سهل القيام بهذا الاسلوب وجود جهاز مركزي قوي للتوجيه والمتابعة، وأنظمة الاتصال البريدي والهاتفي واللاسلكي، وسهولة الانتقال بالطيران في أوروبا للاجتماع والمناقشة، وكلها من التقنيات المستحدثة أو المحسنة حديثا.

٣. تقنية وضع المصطلح:

فيما يتعلق بوضع المصطلح والأصول الواجب اتباعها بذلت اوروبا خلال القرن الحالي جهودا كثيرة لضبط المصطلحات العلمية والتقنية وجمعها. ففي مطلع القرن بدأ مثلا اتحاد المهندسين الألمان باعداد معجم تقني، فبلغ عدد جذاذات الكلمات ٦ر٣ مليون جذاذة، وفي غضون ذلك قام «شلومان» بنشر معجم صغير لأجزاء الآلات متبعا أسلوب التصنيف حسب الموضوع – وطالما اتبع المؤلفون العرب هذا الاسلوب قديما – فَعَدَل اتحاد المهندسين عن إصدار المعجم الالفبائي، وكلف شلومان باصدار المعاجم المصنفة حسب الموضوعات مع الرسوم المرافقة. وهكذا أصدر شلومان حتى عام ١٩٣٢ سَبْعَةَ عَشَرَ معجما.

وتابع المهندس النمساوي يوجين ووستر E. Wuster هذا التطور، فقدم أطروحته للدكتوراه عام ١٩٣١ بعنوان «التقييس الدولي اللغوي في المجال التقني» وقد أدى نشاطه في هذا المجال الى تشكيل «ايزو» لجنة دولية لعلم المصطلح، مجال عملها – حسب تعديل ١٩٨١ – «تقييس الطرق المتبعة في وضع المصطلحات وجمعها والتنسيق فيما بينها» وتساهم في عضوية اللجنة حاليا ٥١ دولة، و ٣١ منظمة دولية. وقامت في كلٍ من فينا وموسكو وبراغ مدارس لعلم المصطلح أصبحت تعرف بأسماء هذه العواصم. وكذلك بدأت بعض الجامعات تبحث في مجال علم المصطلح كما في مؤسسة اللسانيات التطبيقية في جامعة درسدن، وفي ليبزغ، وفي الدول الاسكندنافية وفي جامعة مانشستر في بريطانيا. وتأسس بالتعاون بين اليونسكو ومؤسسة المواصفات النمساوية عام ١٩٧١ المركز الدولي للمعلومات المصطلحية – انفوتيرم Infoterm في فينا. ويبين الشكل (١) صفحة من معجم موضوعي صادر في لايبزغ، والشكل (٢) صفحة من معجم موضوعي عربي صادر في القاهرة بالتعاون مع دار نشر المانية.



الشكل (١)

I Die Lehrschlosserei

1 die Werkzeugausgabe 2 die technische Zeichnung (*hier:* der Riegel) 3 der Schlosserlehrling 4 die Metallsäge (*hier:* Bügelsäge) 5 die Werkbank 6 der Meister (*hier:* Lehrausbilder für Schlosser) 7 der Rost 8 der Schlosseranzug 9 der Hammer (*hier:* Handhammer) 10 das Stirnband 11 der Körner 12 das Werkstück 13 der Schraubstock (*hier:* Parallelschraubstock) 14 der Schlüssel 15 der Schlüsselbart 16 das Türschloß (*hier:* Kastenschloß) 17 der Feilkloben 18 der Außentaster 19 die Schublehre, Schieblehre 20 der Flachwinkel 21 die Ständerschleifmaschine 22 der Schleifbock 23 die Schleifscheibe

I Fitters training shop, training apprentice fitters

1 stores window 2 working drawing (*here:* bolt) 3 apprentice fitter 4 hacksaw 5 bench, workbench 6 fitter (*here:* fitter instructor) 7 duckboard floor 8 fitter's overalls 9 hammer 10 head-band 11 centre punch 12 workpiece 13 vice (*here:* parallel vice) 14 key 15 web, bit 16 door lock (*here:* rim lock) 17 hand vice 18 outside calipers 19 caliper gauge 20 square 21 pedestal grinder 22 wheel stand, grinding head 23 grinding wheel

II Die Schlosserwerkzeuge — Das Werkzeug

24-28 Feilen (Schruppfeilen, Bastardfeilen, Schlichtfeilen) 24 die Flachfeile 25 die Vierkantfeile 26 die Dreikantfeile 27 die Halbrundfeile 28 die Rundfeile 29-31 Meißel 29 der Flachmeißel 30 der Kreuzmeißel 31 der Nutenmeißel 32 der Bohrer (*hier:* Spiralbohrer, Wendelbohrer) 33 die Reibahle 34 der Senker (*hier:* Spitzsenker) 35 die Brustleier 36 die Gewindeschneidkluppe (für Außengewinde) 37 der Gewindeschneidbohrer (für Innengewinde) 38 das verstellbare Windeisen 39 der Durchschlag, Dorn, Nageltreiber 40 die Bohrknarre 41 der Schaber (*hier:* Dreikantschaber) 42 der Schraubenzieher 43-48 Zangen 43 die Rundzange 44 die Flachzange 45 die Kombinationszange 46 die Brennerzange 47 der Vorschneider 48 der Hebelvorschneider

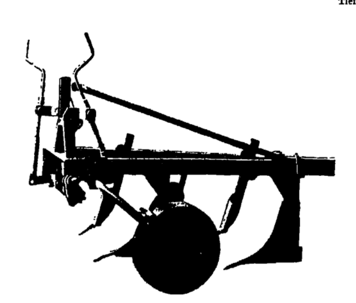
II Fitter's tools — Tools

24-28 files (rough, bastard, second cut, smooth, and dead smooth) 24 flat file 25 square file 26 three-square file 27 half-round file 28 file 29-31 chisels 29 flat chisel 30 crosscut chisel 31 key-way chisel 32 drill (*here:* taper shank twist drill) 33 reamer (*here:* hand reamer) 34 countersinking cutter (*here:* taper shank) 35 combination of breast drill and carpenter's bit brace 36 engineer's stocks and dies 37 tap (cuts inside threads) 38 adjustable tap wrench 39 nail set, round punch 40 ratchet brace with twist drill 41 scraper (*here:* three-square scraper) 42 screwdriver 43-48 pliers and nippers 43 round nose pliers 44 flat nose pliers 45 combination pliers 46 gas pliers 47 end cutting nippers 48 toggle-jointed cutting nippers

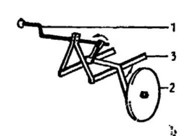
الشكل (١)

٣٥١ **عجلة تحديد الأعماق** في المحراث ، عجلة قرصية مركبة في بدن المحراث ويمكن بها تحديد وضبط عمق الحرث .

351
depth wheel
roue *f* de profondeur
Tiefenrad *n*



a



b

الشكل ١٤٠ — عجلة تحديد الأعماق

a — منظر عام   b — رسم تخطيطي
١ — يد ضبط الأعماق   ٣ — قصبة المحراث
٢ — عجلة التحديد

١٣٣٦ **عداد مياه** جهاز لقياس تصرف المياه ، أي الكمية المستهلكة في فترة محدودة .

1336
water meter
compteur *m* d'eau
Wasseruhr *f*

١٩٤   الشكل (٢)

٤٥٧ عربة فرش الأسمدة

457 farmyard manure spreader
épandeur *m* de fumier
Stalldungstreuer *m*

عربة يدوية أو مقطورة ، لنثر الأسمدة البلدية وتوزيعها عن طريق ترتيبة تقوم بالنشر والتوزيع على نحو منتظم وبمعدلات محددة يمكن التحكم فيها .

الشكل ١٤١ — رسم تخطيطى لعربة فرش الأسمدة البلدية

١ — حلزون التوزيع
٢ — اسطوانة القرم السفلية
٣ — اسطوانة القرم العلوية
٤ — أسنان (أصابع) القرم
٥ — محور عجلة العربة
٦ — ترس يستمد حركته من عجلة العربة
٧ — حصيرة ناقلة
٨ — اتجاه حركة العربة
٩ — اتجاه حركة الحصيرة

---

٣١٧ عزْق (عَزيق)

317 cultivation
travail *m* du sol
Bodenbearbeitung *f*

مصطلح يطلق على إثارة التربة المزروعة بالمحاصيل ، لإبادة الحشائش والأعشاب المتطفلة التى تغتذى بغذائها . قد يجرى العزق يدويا أو بمعدات خاصة . (قد يستخدم المصطلح الانجليزى المقابل هنا على نحو أوسع ليشمل جميع عمليات الفلاحة والزراعة ، ومن بينها العزق) .

---

٦٣٣ عزق يدوى

633 hoeing (cultivating)
binage *m*
Hacken *n*

عملية عزق تجرى يدويا باستخدام فأس أو منقرة لابادة الحشائش والأعشاب الضارة التى تنمو بين صفوف المزروعات ، وهى تتطلب حرصا وعناية من المزارع حتى لا يتلف المحاصيل المزروعة عند التخلص من ما يحيط بها (من حشائش أو أعشاب) .

---

٨٣١ عزم

831 moment
moment *m*
Moment *n*

عزم قوة ما حول نقطة معينة هو حاصل ضرب مقدار هذه القوة فى البعد العمودى لخط عملها عن هذه النقطة . من أنواعه :

أ — عزم إدارة

a — driving moment
moment *m* de rotation
Antriebsmoment *n*

ب — عزم انحناء

b — bending moment
moment *m* fléchissant
Biegemoment *n*

الشكل (٢)

والشكل (٣) صفحة من التصنيف العشري العالمي ((U.D.C.)الذي يمكن أن يستخدم لتقسيم الموضوعات الى أقسام متميزة توضع لها المصطلحات بشكل دقيق وكامل .

ولعل من المفيد أن نطلع قليلا على مبادىء هذا العلم الجديد . استخدم في مطلع القرن مثلث الدلالة الذي يربط بين الموضوع المفرد والتصور والرمز (الشكل ٤) . وقام ووستر بتطوير هذا المثلث لتمثيل المصطلح كما هو مبين في الشكلين ٤ ، ٥ . يتألف نموذج ووستر من جزء سفلي يمثل القسم الايمن منه المواضيع المفردة ويمثل القسم الأيسر اللغة منطوقة أو مكتوبة . أما الجزء العلوي فيمثل التصورات Concepts، وهي على نوعين :

تصورات المعاني وتقع في القسم الأيمن، وتصورات الرمّوز (٢) .

م$_{١}$ م$_{٢}$ مواضيع مفردة ذات عدد من الخواص المشتركة

أ$_{١}$ تصور مفرد ، أي مجموعة من الخصائص تعبر عن خواص الموضوع المفرد أ$_{١}$

أ$_{٢}$ تصور مفرد ، أي مجموعة من الخصائص تعبر عن خواص الموضوع المفرد أ$_{٢}$

أ تصور مجرد من التصورين المفردين أ$_{١}$ و أ$_{٢}$. هذا التصور هو مجموعة من الخصائص المشتركة بين أ$_{١}$ ، أ$_{٢}$.

ب تصور رمز لغوي . هذا التصور هو مجموعة خصائص تحدد هيئة الرمز أو شكله الصوتي . تقابل ب التصور أ وهو معنى ب .

ب^{١} ، ب^{٢}.. تصورات مفردة للشكل المنطوق أو المكتوب

بو$_{١}$، بو$_{٢}$...أشكال منطوقة أو مكتوبة (تمثيلات للتصور ب).

— يفرق ووستر بين النظرية العامة للمصطلحية والنظريات الخاصة . فالاخيرة تعنى بالقوانين المصطلحية الخاصة بعلم معين أو لغة معينة. أما الأولى فتقدم الأساس العلمي للعمل المصطلحي، أي لتطبيق المبادىء والطرق المصطلحية الموحدة في أي لغة كانت بمردود أمثل.

ويرى ووستر أن المصطلحية علم يمت بصلة لعلوم اللسانيات Linguistics والمنطق Logic والوجود Ontology والتوثيق documentation والتصنيف Classification والحوسبة Computer science وقد درست العلاقات بينه وبين العلوم، ولا تزال هناك حاجة الى مزيد من هذه الدراسة .

وتفرق المصطلحية بين الكلمة اللغوية والمصطلح . فالكلمة رمز لغوي يعطي

629.138.1 Tractor, towed and carried aircraft
.4/.9 *Subdivide broadly as* 629.1–44/–49, *e.g.*
.4 Cargo or freight aircraft
.5 Passenger aircraft. Air liners
.6 Private aircraft. Trainer aircraft

629.139 **Bases: ground or deck equipment, installations.** *Cf.* 623.822.7

629.139.2 Hangar and shed installations. *Cf.* 725.39
.4 Mobile (handling) equipment: trolleys, etc.
.5 Supply equipment: fuel, oil, oxygen, etc.
.6 Take-off, launching gear: catapults
.8 Landing, mooring, arresting gear

629.19 **Astronautics. Space vehicles, stations, etc.**[1]

63 Agriculture. Forestry. Stockbreeding. Animal Produce. Hunting. Fisheries

631/635 AGRICULTURE, PLANT HUSBANDRY AND BREEDING. FORESTRY

631 AGRICULTURE. AGRONOMY. FARMING GENERALLY. *Cf.* 581.6

631.1 **Farm management.** *Cf.* 65
.11 Site, type of undertaking, size, etc.
.15 Principles, planning, choice of system, control, etc.
.16 Economic administration. Accountancy, costing and valuation. *By* :657

631.2 **Farmsteads, farmyards.** *By* :728.6; :728.94
.27 Enclosures, fencing, hedges. *Cf.* 624.028.8

631.3 **Agricultural implements, tools, machinery**
–2/–8 Details of machinery. *As* 621–1/–8
631.31 Tools for working the soil
.311 Implements for general use: spades, forks
.312 Ploughs
.313 Harrows
.314 Rollers
.315 Garden tools: hoes, rakes, etc.
.316 Cultivators
.319 Drillploughs and other implements
631.33 Sowing and planting machines, etc.
.331 Sowing tools and implements
.332 Planting (out) tools and implements
.333 Manure spreaders
.335 Plant dividing and layering implements
.336 Transplanters. Tree planters
631.34 Equipment for care of plants, pruning, etc. Protective, supporting, marking devices
631.35 Harvesting implements and machines
.351 Harvesting by hand. Scythes. Sickles
.352 Mowing machines
.353 Haymaking machines. Hay loaders
.354 Binders. Combine harvesters
.358 Potato, beet digging machines, etc.
631.36 Preparing, scouring, handling and dressing machines and equipment
.361 Threshing, shelling, coring, peeling, etc.
.362 Sorting, sieving, cleaning, winnowing, washing, drying, fermenting, etc.
.364 Bagging, bundling, baling, sheaving, etc.
631.37 Mechanical power. Transport. *By* :621,629.1
.371 Provision of power, mechanization
.372 Powered transport: tractors, trucks, etc.
.373 Non-powered: waggons, carts, barges, etc.

631.4 **Soil science.** *Cf.* 624.13
:55 Agrogeology
.41 Chemical and physical chemical properties: nutrients, ion-exchange, pH, humus, etc.
631.42 Soil analysis. Field experiments
.43 Physical properties: moisture, aeration, texture
.44 Classification: climatic types, podsols, etc.
.45 Fertility, toxicity, exhaustion
.46 Soil micro-organisms. Bacteriology. Biology
.47 Survey for cultivation. Lic. Topography
.48 Formation. Pedology. Transported soils

631.5 **Operations. Growing. Cultivation methods**
.51 Tilling: digging, ploughing, etc.
.52 Selection. Breeding. Acclimatization, etc.
631.53 Rearing, setting, propagating. Nurseries
.531 Seed and its treatment. Sowing
.532 Dividing, propagating by division
.534/.535 Layering. Cuttings
.536/.538 Transplanting. Rejuvenation
631.54 Tending and care of plants. *Cf.* 632
.541 Grafting. Budding
.542 Pruning. Thinning
.543 Planting: methods, types of plantation
.544/.545 Forcing (under cover). Retarding
.548 Special measures: covering the soil, watering
631.55 Harvesting: reaping, stacking, yields, etc.
.56 Treatment after harvesting. *As* 631.36
.563 Storage, ensilage
.565 Transport. *By* :656
631.57 By- and co-products
.571/.574 Bark. Stem. Roots. Foliage
.575/.577 Flowers. Fruits. Juices, saps, etc.
631.58 Systems of cultivation: fallowing, intensive, pastoral, electro-cultivation, etc.
.582 Crop rotation
.586 Dry farming. Deep working
.589.2 Hydroponics (water, sand, etc.)

631.6 **Rural engineering.** *Cf.* 626.8; 627.5
.61 Clearing. Reclamation
.62 Drainage. *Cf.* 627.53
.67 Irrigation. *Cf.* 626.81; 628.1

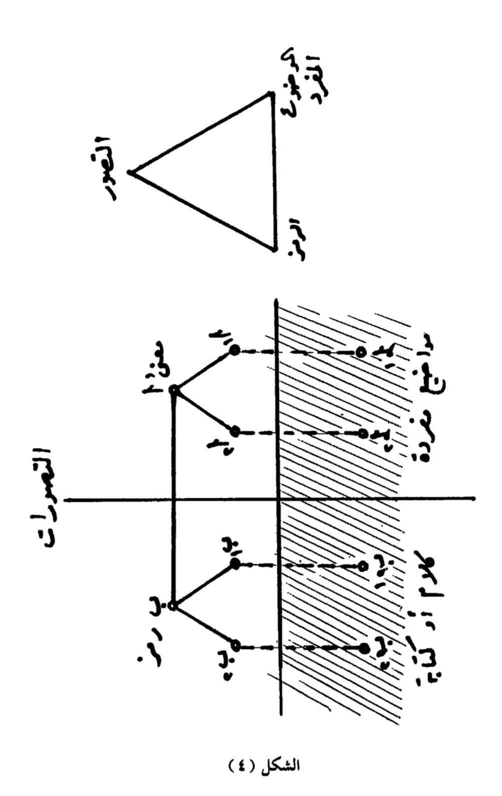
631.8 **Fertilizers. Manuring**
.81 Manure, plant nutrients generally
.82 Chemical (artificial) fertilizers in general. Minerals: lime, iron sulphate, etc.
.83 Potassium fertilizers (excl. nitrate)
.84 Nitrogen fertilizers: nitrates, nitrification
.85 Phosphate and superphosphate fertilizers
.86 Organic fertilizers. Stable and liquid manure
631.87 Other organic fertilizers. Green manuring. Humus. Refuse. Compost

631.9 **Agricultural influences, ecology, etc.**
.92 Geophysical influence of plantations and crops (on climate, soil, water, etc.)
.95 Agricultural ecology. *Cf.* 581.5
.96 Plantation systems

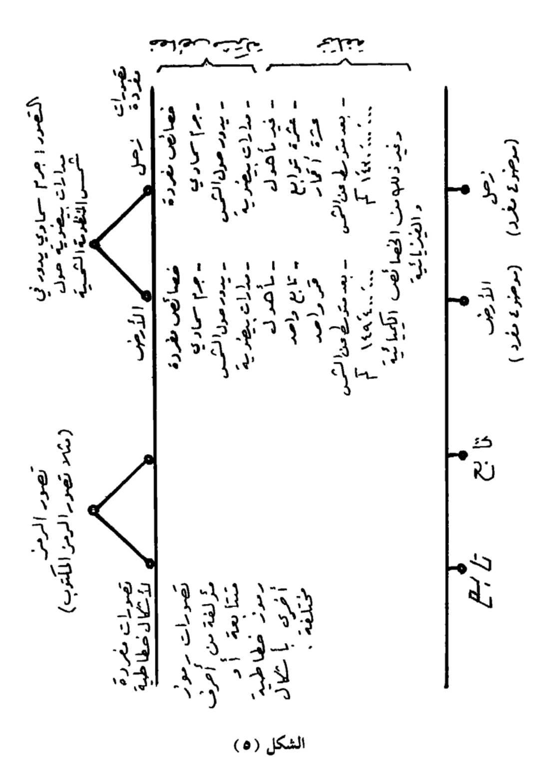
[1] New Air/Space scheme due 1962.

Universal Decimal Classification Abridged Ed·B&I 1000 A: 1961

الشكل (٣)



الشكل (٤)



التصور : جرم سماوي يدور في مدارات بيضوية حول شمس المنظومة الشمسية
تصور الرمز
(مثلا تصور الرمز المكتوب)
تصورات مفردة
زحل
الأرض
تصورات مفردة لأشكال خطاطية
خصائص مفردة
- جرم سماوي
- يدور حول الشمس
- مدارات بيضوية
- فيه ما أحول
- عشرة توابع عشرة أقمار
- بعد متوسط عن الشمس ١٤٢٠٠٠٠٠٠٠ كم
خصائص مفردة
- جرم سماوي
- يدور حول الشمس
- مدارات بيضوية
- ما أحول
- تابع واحد قمر واحد
- بعد متوسط عن الشمس ١٤٩٤٠٠٠٠٠ كم
وغير ذلك من الخصائص الكيميائية والفيزيائية
خصائص مشتركة
مختلفة
تصورات رموز مؤلفة من أحرف متتابعة أو رموز خطاطية أخرى بأشكال مختلفة.
زحل
(موضوع مفرد)
الأرض
(موضوع مفرد)
تابع
تابع

الشكل (٥)

لمحتوياته العديد من المعاني دون حدود واضحة، مع انتقال تدريجي أحيانا من معنى الى آخر. وتختلف ألوان هذه المعاني أحيانا باختلاف السياق الذي ترد فيه الكلمة. فالكلمة في اللغة ذات علاقة كبيرة بالسياق. أما المصطلح فهو رمز لغوي مخصص لتصور محدد أو لاكثر من تصور واحد احيانا. والتصور هو معنى المصطلح وهو موجود قبل وجود المصطلح، ويرتبط وجوده لا بسياق الكلام وانما بمنظومة التصورات التي ينتمي اليها، فيحافظ على المعنى رغم اختلاف السياق. وقد يكون المصطلح كلمة أو مجموعة كلمات أو حرفا أو رمزا خطاطيا – Graphical أو مختصرا abreviation أو لفظة أوائلية acronym أو اشارة notation كما تفرق المصطلحية بين المصطلح والكلمة المكنزية Thesaurus Word فالأخيرة رمز لغوي يستخدم للفهرسة واسترجاع المعلومات، وقد تكون كلمة أو مصطلحا أو اسما، وهي في الاغلب مصطلح يقوم بدور الواصفة Descriptor أو غير الواصفة. والواصفة ذات معنى يتعلق بمنظومة المعلومات التي تستخدم فيها. (٢)

لقد كان من المفروض على المنظمة أن تعنى بالمصطلحات، فقد نصت اتفاقية احداثها على أن من أهدافها العمل على توحيد المصطلحات. ولذلك لم يكن من الغريب تشكيل اللجنة الفنية رقم ٥ لعلم المصطلح في عام ١٩٨١م، وانضمت اليها تسع دولٍ عربية ومكتب تنسيق التعريب، والاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية. وتتولى تونس الآن الامانة الفنية لهذه اللجنة. ولم يكن في تفكيري عندما اقترحت تشكيل هذه اللجنة أن نقحم مبادىء علم المصطلح الغربية اقحاما وانما كنت ارى من الواجب أن ندرس الموضوع فان وجدنا فيه ما ينفعنا أخذناه، وأن لم نجد تركناه.

وكان من الطبيعي أن تبدأ اللجنة أعمالها بالاطلاع على أعمال اللجنة الدولية للمصطلحية، فترجمت التوصيات والمواصفات الدولية التالية وقدمتها لهيئات التقييس والمجامع العربية للدراسة:

– توصية ايزو رقم ٧٠٤ مبادىء التسمية.
– توصية ايزو رقم ٩١٩ دليل تحضير المعاجم المصنفة.
– توصية ايزو رقم ١٠٨٧ معجم مفردات علم المصطلح.

– توصية ايزو رقم ١١٤٩ تصميم المعاجم المصنفة متعددة اللغات.
– توصية ايزو رقم ١٩٥١ الرموز المعجمية.

كما وضع المعهد القومي للمواصفات والملكية الصناعية بالجمهورية التونسية مؤخرا في نطاق خطة عمل اللجنة مشروعا أوليا لمواصفة عربية في تعريب الاصوات الاعجمية: الجزء الأول: تعريب الصوامت. وفي نطاق اختيار المصطلحات وضعت الامانة العامة للمنظمة تنظيما لوضع المصطلحات وتخزينها في المطبوعين التاليين:

١. طريقة اختيار المصطلحات ووضعها، ١٩٨١.
٢. أساليب إيجاد المقابلات العربية للالفاظ الاعجمية، القواعد والمبادىء، ١٩٨٣.

ورغبت المنظمة باستخراج ما في التراث من مبادىء ومفاهيم تتعلق بالمصطلحية فاتفقت مع أستاذ جليل من مجمع اللغة العربية في دمشق، على وضع دليل في أصول وضع المصطلح العربي، والمأمول أن يتمكن من إنهائه قبل نهاية العام الحالي. كما أقرت اللجنة العامة للمنظمة في اجتماعها السنوي الأخير تكليف المعهد القومي للمواصفات في تونس ترجمة دليل المصطلحية الذي صدر عام ١٩٨٤ بالتعاون بين اليونسكو والمركز الدولي للمعلومات المصطلحية (انفوترم).

هذه خلاصة عن التقنية الحديثة المتعلقة بوضع المصطلحات وبعض الجهود المبذولة في جلائها وجلاء تراثنا العربي فيها.

٤– تقنية الطباعة:

استغرق تطورُ الكتابة واستخدامُ الوسائط المادية للكتابة من طين وحجر وجلد وورق آلاف السنين. وحصل تطور عظيم في الكتابة عام ١٤٧٥ عندما طوّر غوتنبرغ الطباعَة الآلية باستخدام حروف معدنية يجرى ضَمُّها لتشكيل الكلمات، ثم فَكُّها بعدَ انتهاءِ الطباعةِ لاستخدامها من جديد. كان عملُ غوتنبرغ إنجازاً عظيما إذ شمل التغلب على كثير من الانجازات الصناعية من رسم الحروف وحفر قوالبها وخَلطِ المعادن وصَبِّها، وتصميم آلات الطباعة وتطوير حبر الطباعة. وكان عملُه نموذجا لاساليب الصناعة الحديثة. وبقيت طريقة صَفّ الحروف يدويا سائدةً لاكثَر من أربعة قرون الى أن بدأت تطوراتٌ جديدةٌ عام ١٨٧٠ فاستخدمت طريقةُ صَبّ الأسطر بدلًا من صَبِّ الحروف.

حارب علماءُ الفقه في الآستانة مع الأسف استخدامَ المطبعة خوفا من التشويه والتدليس الذي قد يلحق بالكتب الدينية، وبذلك تأخر الدخول الفعال للمطبعة الى البلاد العربيةِ الى عام ١٨٢١ عندما أنشأ محمد علي باشا مطبعة بولاق. وكان قد سبق ذلك إدخال نابليون للمطبعة عند غزوه مصر، إلا أنه أعادها معه عند رحيله. وهكذا بقيت البلادُ العربيةُ تكتب وتُنْشر بخط اليد مدة ثلاثمائة وخمسين عاما بينما كانت المطابع الأوربية تنشر العلم والثقافة بالأسلوب الحديث الواسع[٣]. لقد دخلت قبل ذلك التاريخ مطابعُ معَ الارساليات المسيحية واليهودية لم يكنْ لوجودها انعكاسٌ حقيقي على الحياة، ولم تنتشر الصحافة وتنتشر معها المطابع في العالم العربي الا منذ أواخر القرن التاسع عشر.

ويعزو سوندرز من جامعة كانتربورى في نيوزيلاندة أحد الأسباب الرئيسية لانقلاب ميزان القوى بين العالم الاسلامي وأوروبا منذ مطلع القرن السادس عشر الى تأخر دخول المطبعة. ولئن كنا نَجدُ المطابع قد انتشرت في عالمنا العربي انتشارا واسعا في هذا القرن فاننا نتساءل عما إذا كانت تقوم بالدور نفسه الذي تقوم به في العالم الغربي من حيث تفاعل الافكار.

وتطورت المطبعة في القرن التاسع عشر فظهرت طريقة الطباعة الحجرية (الليثوغرافية). ثم تطورت هذه فانتشرت طباعة «الاوفست» التي ينتقل فيها الحبر المطبوع الى وسيط مطاطي «البلانكيت» فيعطي على الورق مادة مطبوعة أفضل. وحصل بعد الحرب العالمية الثانية تطور هائل في مجال الطباعة يعادل في مجموعه- كما يرى السيدان الشريف والسيوطي من جريدة الدستور (٤)- جميع التطورات والاختراعات منذ اكتشاف المطبعة في عصر غوتنبرغ ولمدة خمسمائة عام بعده. مركز هذا التطور الهائل هو الصف الضوئي phototype setting والحاسوب. فلم تعد الأحرف تنقل باليد أو تسكب من معدن، وانما تلمس فقط على لوحات كلوحات مفاتيح الآلة الكاتبة، ثم تعطى الأوامر للحاسوب لتحديد نوع الخط وحجمه وطول السطر فنخرج بنص مطبوع على ورق حساس حسب المواصفات المطلوبة، جاهز لاستخدامه في الطباعة.

ولا بد من الاشارة هنا الى الجهود الكبيرة التي قام بها معهد الدراسات والأبحاث

للتعريب في المغرب باشراف مديره الأستاذ أحمد الأخضر غزال لتحسين الطباعة العربية. لاحظ المعهد ارتفاع عدد المحارف اللازمة للطباعة العربية بسبب الحاجة الى محارف أول ووسط وأخير ومنفصل للحرف الواحد، فوحّد أشكال الحروف ووضع ثلاثة أنواع من النهايات تلتصق بالحرف لتعطي الشكل الأخير او المنفصل، وبذلك اختصر كثيراً من عدد المحارف. وقام فعلا بالتعاون مع شركة ألمانية بانتاج الآلات الكاتبة (المراقن) مستخدما المحارف المعيارية (المقيّسة). كما قام بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومنظمة اليونسكو بوضع شفرةٍ ذات سبعة عزوم (سبع مراتب ثنائية) لاستخدامها في تراسل البيانات، ووضع لوحة مفاتيح للميصال (تيرمينال). وكانت جهوده حجرا أساسيا ومحاولة عقلانية جريئة لحل مشاكل الطباعة والرقانة واستخدام الحاسوب في تبادل البيانات ومعالجتها. وبعد تشكيل اللجنة الفنية العربية رقم (٨) للحرف العربي في الاعلاميات، شارك المعهد في نشاطها، وكان له فضل في الوصول الى قرارٍ موحّد في اعتماد مجموعة المحارف العربية المشفرة ذات العناصر السبعة لتبادل المعلومات (المواصفة العربية ٤٤٩).

لقد كان التطور التقني أسرعَ من الخطُوات التي قام بها معهد الدراسات والأبحاث للتعريب لتطوير الخط العربي، فأبقى هذا التطور الأحرف العربية كما هي بأشكالها الجميلة والمعتادة واستخدم المعالج الميكروي Microprocessor سواء في الآلات الكاتبة العربية الحديثة أو في أجهزة الصف الضوئي، للخروج بالاشكال المطلوبة للأحرف دون أن يكون على لوحة المفاتيح سوى شكل واحد للحرف، وذلك عن طريق برنامج يحلل وضع الحرف في سياق الكتابة ويحدد هو نفسه شكل الحرف اللازم. وبذلك تم اختصار الجهد الكبير الذي كان يعانيه ضارب الراقنة العربية أو صفيف الأحرف الطباعية.

٥ – تقنية الاتصالات:

جدير بنا أن نشير ولو سريعا الى نقل الكلمة المسموعة بعد أن أشرنا إلى نقل الكلمة المكتوبة. خطا تبادُل الكلمةِ المكتوبةِ خطوةً سريعةً عام ١٨٣٢ عندما تَمّ اكتشافُ المبرقة (التلغراف). وبعد ذلك بخمسين عاما تم تطوير الهاتف (التلفون) الذي أمكن

بوساطته نقل الكلمة المنطوقة. أما تسجيل الصوت (الفوتوغراف) أو الحاكي فقد تطور بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد أن كان تسجيل الصوت يتم بوساطة الذبذبات على أسطوانات حقيقية، أصبح يتم على أقراص رقيقة من اللدائن ولكنا بقينا على تسميتها بالاسطوانات رغم أنها غير اسطوانية. ثم تطور تسجيل الذبذبات من آلية ميكانيكية الى آلية مغنطيسية على شريط يحمل طبقة من أوكسيد الحديد. وتطور الراديو فأصبح الكلام يصل مباشرة إلى كل منزل، كما تطور نقل الصورة فأصبحت الصورة الملونة تصل الى دورنا فوراً من كل مكان في العالم.

هل خدمت هذه التطوراتُ التقنيةُ اللغةَ العربيةَ؟ لقد ساعدت على انتقال اللغة بسرعة فائقة، كما ساعدت الطباعةُ والرقانةُ قبلها على سرعة انتشار اللغة. ولعل تقدُّمَ الطباعةِ كان أكثر عونا للغة العربية بما أداه من نشر للعلم عموما ونشر اللغة العربية خصوصا.

ولا شك في أن الندوة الاخيرة من ندوات هذا الموسم الثقافي سوف تبين لنا الدورَ الفعالَ للاذاعة والتلفزة في نشر أساليب التعبير الصحيحة والمصطلحات، وفي توحيد اللهجات في الأقطار العربية.

٦- تقنية الحاسوب:

الحاسوب جهاز يقوم بعملِيّات حسابية ومنطقية وَفْقَ تعليمات يضعها له الانسان. وهو يسجل في ذاكرته أرقاماً تقوم مقامَ الأحرف. ولكل حرفٍ أو أشارة ذاتِ دلالةٍ رقمٌ محدد في شفرة معتمدة. والشفرة العربية الموحدة هو ما نجحت المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس في وضعه والتوصل الى اتفاق عربي ودولي حوله. ويبين الشكلان ٦، ٧ هذه الشفرة.

لا يكتب الحاسوب الحرف كما تطبعه المطبعة، وانما يسجل في داراته الكهربائية رقم الحرف كما تحدده الشفرة. وخاصته الرئيسية هي إمكان عَرْضِ ما خزنه وفق نظام أو أنظمة محفوظة فيه، ووفق أوامر تصدر اليه. ومن خواصه أيضا استيعابه الكبير للمعلومات، وإمكان التسجيل لا في ذاكرته الرئيسية فقط وانما على أقراص إضافية رقيقة مما يجعل بالامكان حفظ مكتبة بكاملها في حيز صغير. ومن خواصه أيضا سرعة مسحه أو استعراضه للمعلومات المخزونة فلا تستغرق قراءة الكلمة فيه سوى أعشار الجزء من

b7					0	0	0	0	1	1	1	1
b6					0	0	1	1	0	0	1	1
b5					0	1	0	1	0	1	0	1
b4	b3	b2	b1		0	1	2	3	4	5	6	7
0	0	0	0	0				0	@	ذ	ـ	ـِ
0	0	0	1	1			!	1	ء	ر	ف	ـّ
0	0	1	0	2			"	2	آ	ز	ق	ـْ
0	0	1	1	3			#	3	أ	س	ك	
0	1	0	0	4			¤	4	ؤ	ش	ل	
0	1	0	1	5			%	5	إ	ص	م	
0	1	1	0	6			&	6	ئ	ض	ن	
0	1	1	1	7			'	7	ا	ط	ه	
1	0	0	0	8			)	8	ب	ظ	و	
1	0	0	1	9			(	9	ة	ع	ى	
1	0	1	0	10			*	:	ت	غ	ي	
1	0	1	1	11			+	؛	ث	]	ـً	}
1	1	0	0	12			،	>	ج	\	ـٌ	|
1	1	0	1	13			-	=	ح	[	ـٍ	{
1	1	1	0	14			.	<	خ	^	ـَ	‾
1	1	1	1	15			/	؟	د	_	ـُ	

Table I – continued

الشكل (٦)

b4	b3	b2	b1	b8 b7 b6 b5 →	00	01	02	03	04	05	06	07	08	09	10	11	12	13	14	15
				b8	0	0	0	0	0	0	0	0	1	1	1	1	1	1	1	1
				b7	0	0	0	0	1	1	1	1	0	0	0	0	1	1	1	1
				b6	0	0	1	1	0	0	1	1	0	0	1	1	0	0	1	1
				b5	0	1	0	1	0	1	0	1	0	1	0	1	0	1	0	1
0	0	0	0	00			SP	0 ٠	@	P	`	p			NBSP			ذ	ـ	ـِ
0	0	0	1	01			!	1 ١	A	Q	a	q					ء	ر	ف	ـّ
0	0	1	0	02			"	2 ٢	B	R	b	r					آ	ز	ق	ـْ
0	0	1	1	03			#	3 ٣	C	S	c	s					أ	س	ك	
0	1	0	0	04			$	4 ٤	D	T	d	t			¤		ؤ	ش	ل	
0	1	0	1	05			%	5 ٥	E	U	e	u					إ	ص	م	
0	1	1	0	06			&	6 ٦	F	V	f	v					ئ	ض	ن	
0	1	1	1	07			'	7 ٧	G	W	g	w					ا	ط	ه	
1	0	0	0	08			(	8 ٨	H	X	h	x					ب	ظ	و	
1	0	0	1	09			)	9 ٩	I	Y	i	y					ة	ع	ى	
1	0	1	0	10			*	:	J	Z	j	z					ت	غ	ي	
1	0	1	1	11			+	;	K	[	k	{				؛	ث		ـً	
1	1	0	0	12			,	<	L	\	l	|			،		ج		ـٌ	
1	1	0	1	13			-	=	M	]	m	}					ح		ـٍ	
1	1	1	0	14			.	>	N	^	n	‾					خ		ـَ	
1	1	1	1	15			/	?	O	_	o					؟	د		ـُ	

Table IV - 8-bit coded Arabic/Latin character set

الشكل (٧)

من المليون من الثانية. وهو فوق ذلك ينشر لك النص مصورا على الشاشة، ويصنف لك ما في هذا النص وفق ما ترسم له من خطة. فقد أمكن مثلا إحصاء الجذور الواردة في الصحاح للجوهري فكانت ٥٦٣٩ جذرا منها ٤٨١٤ جذراً ثلاثيا، وفي لسان العرب لابن منظور فكانت ٩٢٧٣ جذرا منها ٦٥٣٨ جذرا ثلاثيا أما تاج العروس للزبيدي فقد وجد أنه يحوى ١١٩٧٨ جذرا منها ٧٥٩٧ جذرا ثلاثيا. وأمكن بوساطة الحاسوب أيضا معرفة تواتر الحروف في هذه الجذور. ولا شك في أن حصر هذه الجذور ومقارنتها ووضعها تحت تصرف اللغوي والمصطلحي وفور طلبه، مما يساعد على حسن انتقاء المفردات لتستخدم في وضع المصطلحات العلمية(٥). لقد قامت المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس باعتماد تسع مواصفات عربية خاصة بالحاسوب منها ثلاث مواصفات خاصة بالمصطلحات ومواصفة للوحة المفاتيح التي يؤمل أن توحد في المستقبل لوحات المفاتيح في آلات الرقن المختلفة. وأقر مجمع القاهرة في دورته الثانية والخمسين مصطلحات للحاسب الآلي يتضح من مراجعتها عدم التنسيق مع معجم المصطلحات الذي أصدرته المنظمة العربية للعلوم الادارية قبل سنوات، وتجنب الصواب في بعض الأحيان كاستعمال كلمة رمز مقابل Character على حين يستخدم هذا المصطلح مقابل Symbol ويؤكد هذا ضرورة اتباع اسلوب يتصف بالتعمق والتشاور والاستمرار عند وضع المصطلحات.

واستخدمت المنظمة تقنية الحاسوب في خزن المصطلحات الخاصة بالتقييس. وحاسوبها يتسع لعشرة الآف مصطلح عربي وانكليزي وفرنسي. وهو مزود بشاشة وطابعة يمكنها طباعة هذه المصطلحات بالترتيب الهجائي بأي من اللغات الثلاثة. كما يمكنها أنْ تزودك بالمصطلحات لأيّ من اللجان الفنية العربية أو الدولية، أو أي عدد من هذه اللجان. وقد قامت المنظمة باصدار أول نشرة تضم مصطلحاتها ووزعتها على هيئات المواصفات العربية. والهدف هو اصدار النشرات بشكل دوري لتبقى الهيئات على اطلاع بالمصطلحات المعتمدة أو المفضلة فتزود بها الباحثين لديها، وبذلك تسير نحو توحيد المصطلحات. إنه بنك صغير للمصطلحات ولكنه رائد في وصوله الى النتائج وكبير بالنسبة للامكانات المتاحة.

وهناك جهود تبذل في بنوك عربية للمصطلحات تعمل ضمن إمكانات أكبر، ومنها:-

– حاسوب الجامعة العربية في تونس الذي يخزن فيه مشروع «راب» مصطلحاته الخاصة بالاتصالات اللاسلكية.
– حاسوب المركز الوطني السعودي للعلوم والتكنولوجيا (باسم).
– حاسوب فراسكاتي الذي تخزن فيه مصطلحات معهد الدراسات والابحاث للتعريب.
– حاسوب المصطلحات لاغراض الترجمة لشركة سيمنز في ميونخ الذي يخزن مكتب تنسيق التعريب مصطلحاته فيه.
– بنك الامم المتحدة للمصطلحات ومنها المصطلحات العربية. وهو يخدم أغراض الترجمة هناك. إن هناك حاجة لبذل جهود جدية لتحقيق التعاون العربي في مجال المصطلحات.

فهناك ضرورة لفهم الجهود الغربية المبذولة في علم المصطلح، وتجاوزها لوضع منهج عربي موحد ومتطور لوضع المصطلحات. وضرورة لفهم أساليب التوثيق الحديثة، فلا يمكن أن نقوم بوضع المصطلحات أو تخزينها إذا لم يقم العمل على أساس قوى من أعمال التوثيق. وهناك ضرورة لمتابعة إصدار المواصفات الخاصة بالحاسوب وبالتوثيق. وهناك ضرورة لفهم خطط تخزين المصطلحات العربية ونشرها في نطاق الحواسيب وبنوك المعلومات السابق ذكرها للتنسيق فيما بينها. وهناك ضرورة لاستيعاب هذه المواضيع كلها في نطاق الجامعات والمجامع اللغوية والمنظمات العربية في إدارة مركزية. ان لغتنا العربية لغة واحدة فلماذا لا نكون يدا واحدة في معالجة قضاياها.

د. محمد ظافر الصواف
عمان – رجب ١٤٠٧
آذار ١٩٨٧

الاشارات :

(١) عبد القادر المهيري، من قضايا العربية في عصرنا. مجلة المعجمية العدد ١ (١٩٨٥) ص ٨ جمعية المعجمية العربية – تونس.

(٢) H. felber, Termimology Manual, Unesco-Infoterm, PGI-84/WS 21, Paris, 1984.

(٣) J. saunders, the muslim world on the Eve of Europe,s Expansion. P.8 130. prentice- Hall, Englewood Cliffs,N.J.1966.

(٤) سيف الدين الشريف وفخري السويطي، الحاسب الالكتروني وصناعة الصحافة في الاردن «بحث مقدم الى المؤتمر الوطني الأول للحاسبات الالكترونية وتطبيقاتها في الاردن. ص ٢٠.

(٥) محمد صالح بن عمر «دراسة إحصائية بالحاسب الالكتروني للجذور الواردة في الصحاح واللسان والتاج. المعجمية العدد ١ (١٩٨٥) ص ١١٩.

المحاضرة الثانية

اللغة العربيّة في مواجهة اللّغات الأجنبيّة

الأستاذ أنور الجندي

السبت ٢٨ رجب ١٤٠٧هـ / ٢٨ آذار ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

أرجو ان أتناول هذا الموضوع الخطر من وجهة نظر باحث اسلامي يؤمن باقامة منهج جامع للفكر الاسلامي ومن خلال إيمان صادق بان اللغة العربية مستهدفة من جهة القرآن والوحدة الاسلامية. وفي الحق إن كلمة المواجهة كلمة رقيقة لا تمثل الصدام الذي وقع فعلا بين العربية واللغات الاجنبية.

لقد بدأت (المواجهة) بين اللغة العربية وبين اللغات الاجنبية منذ اليوم الأول لدخول النفوذ الاجنبي الى قلب الأمة الاسلامية، وكان تركيز التغريب والغزو الثقافي على اللغة العربية بالغ الدقة من حيث إنه المفتاح لكل حرب توجَّه نحو العقيدة أو الفكر أو التراث أو التاريخ أو القرآن نفسه. فقد كان دعاة التغريب في مخططاتهم يعرفون مدى ارتباط اللغة العربية الفصحى بانتشار الدعوة الاسلامية ومدى ارتباط جماعة المسلمين (خارج نطاق البلاد العربية) باللغة العربية بوصفها لغة عقيدة وفكر وثقافة، يجب أن تكون تالية للغة البلاد الاصلية، بل لقد كانت لغات الترك والفرس والملايو والاوردو تكتب جميعها بالحروف العربية.

ولقد كان تركيز النفوذ الأجنبي على اللغة العربية هو بمثابة الحرب على القرآن الكريم نفسه فانه إذا نزلت اللغة الى مستوى في البيان هابط واستمرت على ذلك التنازل جاء اليوم الذي يبدو فيه بيان القرآن وكأنه مختلف وغامض لارتفاعه عن مستوى اللغة العامة وعند ذلك ينفصل القران عن لغة الكتابة ويقرأ بقاموس ويتحقق هدف النفوذ الأجنبي بعزل القرآن عن اللغة العربية لا قدر الله.

إن من يراجع الوثائق التي بدأت بها عملية الاحتلال البريطاني لمصر يجد أن أول أعمال الاحتلال هي وضع الخطة لحطم اللغة، ويبدو ذلك واضحا في تقرير لورد دوفرين عام ١٨٨٢ حين قال: « إن أمل التقدم ضعيف (في مصر) طالما أن العامة تتعلم اللغة

الفصيحة العربية– لغة القرآن – كما في الوقت الحاضر» وحين تحدثت التقارير عن الازهر وضرورة تطويره تبين المخطط التغريبي كاملا ، فقد كان القرآن والاسلام هما الهدف ، وقد توالت هذه الحرب ، ليس في مصر وحدها بل في الشام والمغرب بأقطاره كلها في محاولات قدمها كرومبر وبلنت من ناحية ، ولويس ماسينون وكولان في المغرب ، ثم تقدم رجال يحملون أسماء عربية بعد أن مهد لهم الطريق ويلكوكس ، والقاضي ويلمور ، تقدموا للعمل ، وحيل بين اللغة العربية وبين أحكام المحاكم المختلطة والاجنبية ، وكان التعليم في البلاد العربية المحتلة يتم كله باللغة الاجنبية (الانجليزية في مصر والسودان والعراق) والفرنسية في (سوريا وتونس والجزائر والمغرب) فقد كانت خطة النفوذ الاجنبي ترمي الى :

أولا : تقديم اللغات الاجنبية في الأقطار الاسلامية على اللغة العربية.

ثانيا : تقديم اللهجات واللغات المحلية وتشجيعها والدعوةالى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية.

ثالثا : ابتعاث أبناء المسلمين الى الغرب لدراسة لغاته وكان ذلك إيمانا بأن اللغة هي الوجه الثاني للفكر وأن من يجيد لغة أمة لا بد أن يعجب بتاريخها وفكرها ويصير له انتماء من نوع ما إلى هذه الأمة. وكانت الحملة على اللغة العربية الفصحى تنطلق من خلال حجج ضعيفة واهية منها : صعوبة اللغة ، ومنها التفاوت بينها وبين العامية.

وانطلقت في ظل هذا التيار التغريبي الشديد الخطورة : تلك الكلمة المسمومة التي تقول : إن اللغة العربية لغتنا وهي ملك لنا ومن حقنا أن نتصرف فيها.

كيف يحق لنا (حتى لو كنا كل العرب) أن نتصرف في لغة الثقافة والعقيدة والايمان لألف مليون من المسلمين.

لقد رافق التنافس بين اللغتين الانجليزية والفرنسية على أفق الثقافة الاسلامية مخطط خطير كان يعمل على بث الثقافة الغربية وحجب مفاهيم الفكر الاسلامي من خلال النفوذ الاستعماري الذي فرض على التعليم لغته ومناهجه وعلومه التي تختلف اختلافا بيّنا

عن علوم الاسلام. سواء في مجال التربية أو النفس والاخلاق او الاجتماع ومن ثم برزت أجيال من المثقفين لهم طابع غربي ينظرون بتقدير عجيب للغرب وتاريخه وأعلامه ويزدرون تاريخ أمتهم وقيم فكرهم وهم لم يقرأوه الا عن طريق الاستشراق والتبشير وكان فرض اللغات الاجنبية في مختلف أقطار الأمة الأسلامية عاملا هاما في فرض ثقافاتها ووجهة نظر أهلها وفي الوقوف موقف الاعجاب بالغاصب والعجز عن مواجهته.

ومن يدرس تجارب التعليم الغربي في البلاد العربية (وهو غير التعليم التبشيري) يجد الولاء الواضح للنفوذ الغربي، بينما انحصرت الثقافة الاسلامية في الازهر والزيتونة والقرويين في تحفيظ القرآن دون أن يكون لأصحابها اثر واضح في حركة الحياة الاجتماعية، رغبة في عزلهم عن التوجيه، ولم يخل الامر من محاولات تطوير هذه المعاهد على نحو يفرغها من رصيدها الإسلامي القائم على الأصالة والحفاظ على الذاتية الاسلامية من الانصهار أو الذوبان في بوتقة الحضارة الغربية ومن خلال هذه التبعية الثقافية للغات الغربية كان الأثر البعيد في تبني مناهج الغرب في دراسة اللغة العربية والقرآن وتاريخ الاسلام وفق مناهج التغير المادي للتاريخ وهي مناهج لا تعترف بالوحي والنبوة أو الغيب.

وقد قامت عليها دراسات كان لها شهرتها البعيدة، ولكن اليقظة الاسلامية استطاعت أن تكشف قصورها وعجزها عن العطاء الاصيل. ان من يتابع اقتحام اللغات الاجنبية للغة العربية في مهدها وأرضها ليجدُ صورةً مريرةً حيث يتعقب النفوذُ الاجنبي اللغةَ العربيةَ الفصحى في أصرار وموالاة، ويطاردها حتى لا يدعها تلتقط انفاسها، وهو حين يطاردها يحس بالانتقام من شيء أبعد من اللغة العربية، من القرآن الكريم ونفوذ الاسلام الذي يتنامى في المناطق التي بدأ يسيطر عليها، ففي افريقيا حيث تعمل البعثات التبشيرية من أجل معارضة نمو الاسلام توجه الى اللغة العربية اكبر قدر من المقاومة والحرب فقد كانت لغة العرب لها السيادة في مختلف اقطار افريقيا قبل أن يعمد الاستعمار الى زحزحتها عن مكانها واعلاء لغاته الغربية ولهجات افريقيا الساذجة، فقد جعل الاستعمار اللغة العربية كبرى فرائسه حتى فصل بين نمو الاسلام وامتداده وبين لغة القرآن الكريم، لقد كان للغة العربية الحظ الاوفى في الانبثاث في اللهجات الصومالية – والزنجبارية: اولا لرجوع الصلة بين شرق إفريقيا وجزيرة العرب الى أقدم عصور التاريخ وهو ما يتبين مثلا من وجود كلمة (باريهو) منقوشة على جدران الدير البحري بطيبة. وثانيا لتغلغل اللغة العربية

في اللهجات الصومالية والزنجبارية الذي يرجع الى أن اهل الصومال وزنجبار كانوا على أثر شيوع الأسلام بينهم في عهد بني أمية وهجرة الزيديين إلى تلك الاصقاع في حاجة الى تفهم معاني القرآن والاحاديث وأقوال الائمة، على أن رطانتهم بلهجاتهم تلك ظلت على الرغم من توفرهم على درس اللغة العربية غالبة على ألسنتهم ففشا بينهم- لجمعهم بينها وبين اللغة العربية - لحن جديد عرف في شمال خط الاستواء باللغة الصومالية وفي جنوبه باللغة السواحلية وصارت كلتاهما من ناحية تأثير اللغة العربية فيها مزيجاً من كلمات زنجية بحتة. وقد طرأ التشويه والتحريف على اللغة السواحلية باستيلاء البرتغاليين على حوض المحيط الهادي وسواحل شرق افريقيا، وقد عمد الاستعمار الى إحلال اللغة الانجليزية محل اللغة السواحلية في زنجبار وكينيا وتنجانيقا وأوغندا، وكذلك محل اللغة العربية أيضا.

وقد اشار باحثون كثيرون الى عمق الخطة التي اصطنعها الاستعمار الفرنسي في المناطق التي احتلها من افريقيا فقد كان يحاول ان يبث في عقول الاطفال أنهم من الغال الفرنسي فيقول (البير تيفود) لقد ضحكنا كثيرا عندما كنا نسمع ونحن أطفال أن أجدادنا غاليون. وقد فرضت فرنسا على الطلاب ان يَعُدّوا الفرنسية لغتهم القومية، أما في ساحل العاج فقد كانت الأوامر تقضي بمنع التلاميذ من استعمال لغتهم الام منعا باتا بينما كانوا لا يفهمون كلمة واحدة من الفرنسية، وكانت تفرض العقوبات على المتمردين الذين لا يستطيعون أن ينصهروا في البوتقة. وفي نيجيريا كان الانجليز قد حالوا بين المسلمين والتعليم وكانوا يشترطون أن يغيّر المسلم اسمه الى اسم لاتيني ويحضر الصلوات في الكنيسة ويدرس التاريخ الاستعماري كما عمدوا الى نقل حروف اللغات المحلية من العربية الى الحروف اللاتينية فضلا عن عملية القضاء على التراث الاسلامي التي تعرضت للحريق، للقضاء على كل اثر علمي عربي بعد قطع التيار الحضاري العربي القادم من شمال افريقيا ومصر.

وفي غرب أفريقيا عمد الاستعمار الفرنسي إلى القضاء على اللغة العربية بعد معركته مع اللغة العربية في الجزائر خلال مائة عام كاملة، وقد جاء هذا كله بعد أن بلغت اللغة العربية كل وصف حتى أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة كما أشار الى ذلك (توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة الى الاسلام) وبعد أن كانت بعوث افريقيا ترسل الى مكة المكرمة والأزهر أصبحت ترسل الى الغرب.

وبعد أن كانت اللغة العربية قد شاركت بحروفها وألفاظها في كل اللغات الأساسيّة في افريقيا وهي الهوسا والماندنجو والوولوف والسواحلية والصومالية ولغات النيجر والدناكل في اثيوبيا وارتيريا، عمد النفوذ الاجنبي الى ايقاف كل ذلك واحياء الثقافات الافريقية القديمة، وصبغها بصبغة قبلية اقليمية تساعد على إثارة التعصب واقامة القوميات المحدودة المحلية في نطاق قبلي، ليستغلوا هذه الروح في إقامة سد مرتفع في وجه انتشار اللغة العربية مع نشر الثقافة الانجليزية والفرنسية من خلال اللغتين لتحقيق الاستعمار الثقافي الكامل. وهكذا أصبحت اللغتان الانجليزية والفرنسية – كل في المنطقة المسيطرة – لغة أساسية في كل مراحل التعليم وغُلبّت اللهجات القومية ولغة المستعمر – ليس على مناهج التعليم فحسب – بل على أعمال المصارف والدواوين. وقد أشار إلى ذلك المبشّر زويمر حين قال: يوجد في افريقيا لسانان لهما النصيب الاوفر في ميدان الاستعمار المادي وفي مجال الدعوة الى الله وهما الانجليزي والعربي وهما الآن في مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء مستودع القوة والمال، ويريد أن يلتهم كل منهما الآخر،وهما المعضدان للقوتين المتنافستين، في طلب السيادة على العالم البشري: أعني النصرانية والاسلام.

وفي هذه الجولة استطاعت اللغات الاجنبية كَسْبَ قَصَبِ السَّبق ولكن ليست هذه هي نهاية المباراة.

وفي جنوب شرق آسيا (في الملايو وأندونسيا وتايلاند وغيرها) لا تختلف الصورة كثيرا عن هذا النموذج الافريقي، حيث استطاعت اللغات الاجنبية السيطرة وتراجعت اللغة العربية ثم الحروف العربية أيضا في تركيا واندونيسيا.

لقد تنامى أمر اللغة الانجليزية في العقود الأخيرة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة لتوسع نفوذ الغرب واللغة الانجليزية الامريكية في مناطق الاسلام على النحو الذي حجب اللغة العربية عن مناطق كثيرة وأعجز المسلمين في افريقيا وجنوب شرق آسيا من التزود بالتراث الاسلامي أو الوصول الى «تصور» لمفهوم الاسلام الصحيح نتيجة لقلب الثقافات الغربية، وسعى التبشير السعي الحثيث في كلا المنطقتين لتوزيع الكتاب المقدس ودراسات الغرب التي تقوم على أساس دقيق من الفكر المسيحي.

وبالجملة فقد طاردت اللغتان الفرنسية والانجليزية لغتنا العربية في مختلف أنحاء العالم

الاسلامي، وانتشرتا على حسابها فقد كان من الطبيعي على حسب سنة التطور أن تسير اللغة العربية في ركاب الاسلام أينما حل، ولكن النفوذ الاجنبي خلال اكثر من قرنين من الزمان استطاع ان يوقف نمو اللغة العربية في بلادها وامتدادها في البلاد التي انتشر فيها الاسلام، بل انه عمد الى لغاتها التي كانت تكتب بالحروف العربية فغيرها الى الحروف اللاتينية، ومن ثم فقد أحس المسلمون في هذه البلاد ولا يزالون بنقص كبير من حيث إنهم يتعلمون الاسلام دون ان تيسر لهم من أسباب اللغة العربية ما يعينهم على فهم القرآن الكريم والسنة المطهرة.

★ ★ ★

وفي اندونيسيا وأرخبيل الملايو تجد الصورة قاتمة، فقد تعرضت اندونيسيا بعد الاستقلال للتحديات في مجال اللغة فكتبت اللغة الاندونيسية بالخط الروماني بدلاً من الخط العربي المحلي، وقد فرضت لغة جديدة بخط جديد حتى صارت اللغة الاندونيسية بالخط الروماني لغة اجنبية لا يقرؤون ولا يكتبون بها رغم توجه اكبر عدد من الاندونيسيين الى المدارس والجامعات في الخارج؛ واصبح العدد الاكبر قادراً على ان يقرأ اللغات الغربية وخاصة الانجليزية، أما اللغة الاندونيسية الجديدة فقد صبغت في قالب الثقافة الغربية على حد تعبير السيدة مريم جميلة التي تقول إن الصحف لا تنقل المصطلحات والكلمات الانجليزية وحدها وانما تعدّى تأثيرها الى المجلات الاسلامية الدينية التي تكافح للاحتفاظ بحرية العقيدة ولكنها لا تستطيع ولا تقدر أن تكافح الاتجاه اللغوي.

ويدرك الشباب المسلم في اندونيسيا بان هذا التغريب اللغوي يجعل المسلمين في اندونيسيا منعزلين لغوياً عن الدول الاسلامية الاخرى.

«ايقاف اللغة العربية»

هذا عنوان المخطط، ولقد جاء هذا الايقاف عن طريق القسر والتحدي وبفعل عوامل غير طبيعية أقامت السدود امام نمو اللغة العربية وسيرها مع الاسلام في خط واحد، وخاصة في المناطق التي اتسع فيها نطاق الاسلام من قبل، ولولا هذه المحاولات التي

تقودها قوى التبشير العالمية والتي تَفرِضُ على مناهج التعليم في تلك البلاد لغاتٍ أجنبيةً ولهجاتٍ عاميةً لما استطاعت قوة ان تحول بين العربية الفصحى ومسايرة الاسلام لانها اللغة التي تحمل القرآن دستور الاسلام ومنهجه الاجتماعي والفكري وتحمل السنة والفقه والتراث.

واليوم وفي كثير من البلاد التي تحررت من نفوذ الاستعمار لا يزال النفوذ الفكري يزيّن لاهلها ويغريها بمدارس تقوم دراساتها وبرامجها على اللغات الاجنبية، فضلا عن المدارس الجديدة التي يسمونها مدارس اللغات. وكذلك الامر في معاهد الالسن التي لا تقوم برامجها على اعتبار اللغة العربية هي الاساس، فالمفروض أن تكون كل اللغات التي يتعلمها العربي او المسلم خادمة للفكر الاسلامي، وانما تقوم معاهد الالسن على فلسفة مغرقة في التبعية والولاء الاجنبي ويطمع المشتركون فيها ان تحتضنهم الدول الاجنبية في مناصب واوضاع متميزة يخدمون فيها خصوم أمتهم. ولا يفوتنا ان نثني على الجهود التي يقوم بها اهل الغيرة في بناء المدارس الاسلامية والعربية في كل بلاد العرب والاسلام لحماية النشيء من اخطار مناهج التبشير والتغريب.

ولكن هل توقف المسلمون والعرب عن المقاومة!

الحق انهم لم يتوقفوا وما زالوا يجاهدون ويقاومون ما وسعهم الجهد والمقاومة، فما تزال البعثات التي ترد الى الازهر الشريف والعواصم العربية تعود وقد أُعدت لحمل لواء البيان العربي وتدريس المواد الاسلامية، وتقنية اللسان القومي من العجمة والاقتراب من الاصالة على نحو واسع لا تقطعه الا مؤمرات النفوذ الاجنبي التي لا تكف للحيلولة دون بلوغ الغاية.

* * *

بقي بعد ذلك ان نعرض للشبهات التي طرحت في أفق اللغة العربية من أجل خلق روح الكراهية لها بين أهلها وهي شبهات تصدى لها الكثيرون وكشف زيفها الأبرارُ من ذوي الغيرة والاخلاص:

(اولا) إن تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية، هي دعوة مريبة ترمي الى التحلل من الفصحى خلال خمسة عشر قرنا أو يزيد، فاذا تحللنا من هذه القوانين والاصول

التي صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة أدى بنا ذلك الى فساد الالسنة واتساع رقعة الاختلاف بين الاقطار العربية حتى تصبح عربية الغد شيئا يختلف كل الاختلاف عن عربية القرن الاول، وتصبح قراءة القرآن الكريم والتراث العربي الاسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دارسي الآثار ومفسري الطلاسم.

وقد كان تطور اللغات الاوربية نكبة على اصحابه قطعهم أمما بعد أن كانوا امة واحدة فما زالوا في خلاف وحروب. ثم انه لم يحكم على تراثهم القديم المشترك وحده بالموت بل هو لا يزال يقضي بين الحين والحين على التراث القومي لكل شعب من هذه الشعوب بالموت حتى ما يستطيع الانجليزي اليوم من عامة الشعب ان يفهم لغة شكسبير الذي مات في القرن السابع عشر، اما نحن العرب فاننا نقرأ القرآن ونفهم رسائل الجاحظ فلا نكاد نحس فارقا بين اسلوبه واسلوب المعاصرين.

(ثانيا) هناك معركة العامية التي دعا اليها بعض الشعوبيين في احدى البلاد العربية بقصد القضاء على وحدة الامة تحت لواء الفصحى وهي الدعوة التي افرزت شعر التفعيلة ونظرية الحداثة واسقاط القافية، وهي معركة خاسرة. فقد ثبت ان الفصحى اطوع في التعبير من العاميات كذلك فنحن لسنا في حاجة الى لغة دارجة كحلقة وسطى بين العامية والفصحى واخطر ما في هذا الاتجاه تبني اللهجات الدارجة والمحكية للمسرحيات والتمثيليات وما يسمى الادب الشعبي.

كذلك فان الفجوة بين الفصحى واللهجة العامية ليست بهذه الصورة التي يحاول اعداء اللغة اظهارها وان الخلاف بين عبارة الكتاب العلماء وبين عبارة العامة امر مألوف في كل امة وفي كل لغة حية.

(ثالثا) الهجوم على الحروف العربية بينما تبين بشهادة المثقفين ان هذه الحروف هي اصلح حروف الابجديات قاطبة لكتابة الالفاظ ومن اكثرها دقة في ضبط الاصوات. وقد استطاعت ان تؤدي من انواع الكتابة ما لم تستطع أبجدية اخرى ان تؤديه، فقد استطاعت الحروف العربية ان تكتب لهذه اللغات جميعا دون تعديل او تغيير او اضافة في اشكالها ولقد انخدع الذين دعوا الى الكتابة العربية بالحروف اللاتينية كما حدث في تركيا غير مقدرين الفارق بين اللغتين وكذلك لم يلتفتوا الى اختلاف العربية عن اللاتينية وما تفرعت إليه من لغات، وقد فاتهم ان اللغة العربية

تعبر عن فكرة وثقافة ممتدة لامة واحدة من تاريخها البعيد الى حاضرها المشرق، ما تزال مفعمةً بالحياة والقوة، وان تطورها وتفاعلها لم يتوقف، وهي لغة أمة واحدة ارتبطت بالتاريخ والعواطف والفكر والقيم والمصير اوثق ارتباط، وفوق ذلك فهي لغة القرآن أساس الحضارة والفكر والثقافة العربية الاسلامية. اما اللغة اللاتينية فلم تكن لغة الغرب كله ولم تستطع التغلب على اليونانية فضلًا عن انها كانت لغة ارستقراطية لم تتغلغل في حياة العامة.

(رابعا) محاولة تطبيق مناهج اللغة الاوروبية على اللغة العربية ودراسة اللهجات العامية ولما كان المنهج الوضعي الحديث يجعل اساسه في دراسة اللغة هو دراسة اللهجات والتركيز على الكلام المنطوق دون المكتوب، فان الهدف هنا صرف الانظار عن علاقة اللغة بالدين في سبيل احياء القوميات الحديثة في الغرب، واذا كان الاوربيون قد فرقوا بين اللغة المستعملة في النصوص المقدسة والطقوس وبين اللغة التي يتكلم بها الناس في حياتهم اليومية ومصالحهم الخاصة فان الفصحى ليست هي اللغة اللاهوتية او لغة العبادة فحسب ولكنها تجمع بين الغرضين، كذلك فقد جمعت اللغة العربية بين الاسلوب الديني والاسلوب العلمي، وعبارة لغة الدين عبارة كهنوتية لا تنطبق على العربية وهي مرتبطة بالمسيحية في الغرب.

ومن هنا فانه يلزم ان يكون لنا موقف ازاء نظريات علم الاصوات الحديثة فلا نأخذها قضية مسلمة، فان العلوم الانسانية الغربية الواحدة تختلف اختلافا واسعا عن مفهوم العلوم الاسلامية، الاسلامية وقد درسنا هذا بافاضة في الملتقى الاسلامي بالجزائر في الشهر الماضي، كذلك فان هناك اختلافاً واسعاً من حيث المضمون والتاريخ والظروف بين اللغة العربية واللغات الغربية وما ينطبق على هذه اللغة ليس بالضرورة صالحاً للتطبيق على العربية التي تميزت بارتباطها بالقرآن الكريم الذي حماها من عملية الانهيار التي تتم في الغرب كل ثلاثة قرون، ونحن نطالب بنظرية خاصة لدراسة اللغة العربية من حيث اتصالها بالقرآن وخلودها واستمرارها حتى الآن، ونحن نرفض تطبيق مفاهيم اللغات الاوروبية على اللغة العربية لاسباب علمية بحتة. ويجب ان يكون واضحا ان اللغة العربية هي مفتاح فهم الاسلام والاحاطة به وبدونها لا تحقق معالمه ولا تجلى للناس حقائقه وتعاليمه، وهذا سر الحملة عليها

وقد قبلت اليابان بكل شروط المحتل الامريكي بعد الهزيمة ما عدا شرطا واحدا هو قبول ادخال بعض التعديلات على اللغة اليابانية حيث كان الامريكيون يريدون ان ينتزعوا منها بعض مقوماتها.

* * *

ومن هنا فنحن مطالبون بقدر أكبر من الوعي واليقظة ازاء مؤامرة احتواء اللغة العربية وتفريغها من مقوماتها بعد مؤامرة حبسها عن النماء والانتشار في العالم الاسلامي.

وأخطر ما ندعو اليه هو القدرة على التحرر من سيطرة اللغات الاجنبية على اللسان العربي وضرورة تعريب التعليم كنقطة انطلاق الى الاصالة وايمانا بأن لغة القرآن هي لغة الحياة وانها ليست لغة أثرية بل لغة متجددة وقادرة على استيعاب متغيرات العصر وحقائقه، وقد ظل التعليم في القصر العيني سبعين سنة باللغة العربية حتى احتلت مصر، وامامنا تجربة كلية الطب في دمشق.

كذلك فنحن ننبه إلى ضرورة تعلم اللغات الاجنبية في إطار اللغة الام حتى لا تعطى اللغة الجديدة ولاء معارضاً للولاء الاصيل، فقد حَرَصَ النفوذُ الأجنبي أن ينقل فكره عن طريق لغته وان يحقق لها ولاء في نفوس وعقول ابناء الامة الواقعة تحت سيطرته.

كذلك فنحن مطالبون بأن نحمي لغتنا من اقتحام الفاظ اللغات الأجنبية عليها فان ذلك يجعلها مهلهلة خالية من جمال صنعتها الفريدة ونسيجها المنسجم،فالاسراف في استخدام الدخيل من اللغات الاخرى له محاذيره التي يعرفها شيوخ اللغة، كذلك نحذر من خطر الدعوة الى إسقاط حركات الاعراب.

كذلك فنحن لا نقبل الواقع الذي تدنت له الفصحى اليوم عن طريق الصحافة والتلفزيون والمسرح ولكنا يجب ان نعمل على التسامي بلغة الحوار حتى تقترب دائما من بيان القرآن لا تنفك عنه.

ومن الضروري حماية (الجملة القرآنية) التي دعا العلامة مصطفى صادق الرافعي الى تجاوزها لينال الشهرة الضخمة والمكانة العليا.

واذا كان لنا أن نأخذ من الغرب فلنأخذ قول الفرنسيين إنّ اللغة هي الجنسية، وفي ألمانيا إن اللغة مادة المواد والمادة العليا لانها يتصل بها كل الفكر، ولم نسمع في الغرب

من يقول قولة الظالمين إن اللغة مجرد أداة وانها أداة غير طيعة ولا صالحة. انهم يريدون محو اللغة العربية، وهدم أصالتها الاسلامية ولقد كان عليّ أن أتحدث عن عظمة اللغة العربية واتساعها وتعدد معانيها وقد أمكن حصر مائة الف مادة من كلامها،واسرد على مسامعكم تقدير باحثين أجانب نختلف معهم في كل شيء لهذه اللغة،لا أحدثكم عن مئات المصطلحات العربية في اللغات الاوروبية،ولكني التزم بموضوع المحاضرة وأرجو أن أكون قد وفقت الى تجلية القضية.

واحذر من مراكز تعليم اللغة العربية في جامعات فرنسا وبريطانيا وبرلين وغيرها فان الذين ذهبوا اليها شهدوا بأنها تنفر أبناء المسلمين غير العرب من تعليم العربية وتردد قول المستشرقين والمبشرين في اتهامها بالجمود والعقم وبأنها لغة لا تصلح للحياة الا لمجتمع بدوي وانها لا تساير الحياة الحضارية.

★ ★ ★

والحق أن حرب اللغة العربية هي حرب للاسلام والقرآن.

لأن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الاصلية وحفظها من عوادي الفناء وسيحفظها على مر الدهور وستموت اللغات الحية المنتشرة في العالم اليوم كما ماتت لغات حية كثيرة في سالف العصور. أما العربية فستبقى بمنجاة من الموت وستبقى حية في كل زمان مخالفة للنواميس الطبيعية التي تسري على سائر لغات البشر ولا غرو فهي متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية، فالقرآن هو الحصن الحصين الذي تحيا به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ووسائطها الهدامة،

والله ولي التوفيق.

المحاضرة الثالثة

المشافي والتمريض في التراث الطبّي الإسلامي

الأستاذ الدكتور أكرم منيب الدجاني
رئيس شعبة جراحة المسالك البولية
كلية الطب - الجامعة الأردنية

السبت ٦ شعبان ١٤٠٧هـ / ٤ نيسان ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

بينما كانت اوروبا تعيش في جهل وظلام، وتفتقر الى أصول العلم والمعرفة والثقافة الطبية، ويغلب على طبها الدجل والخرافات وتعاليم رجال الدين، كانت الدولة الاسلامية منذ نشأتها رائدة في تقدم العلوم وخاصة الطبية منها وفي رفع شأن الخدمات الطبية لمواطنيها.

وسنقدم في بحثنا هذا إنجازات الطب العربي الاسلامي في إنشاء المستشفيات في مختلف أنحاء الدولة الاسلامية ونستعرض التمريض في تلك الأزمان ودور المرأة فيه ونقارن بين الطب الاوروبي في تلك العصور وبين ما وصل اليه الطب في الدولة الاسلامية من رقي ورفعة.

* * *

كان الطب في الجاهلية بدائيا اعتمد على التعاويذ والكهانة أكثر من اعتماده على الاستقصاء ومعرفة أسباب المرض قبل وصف العلاج. وقد وجدت الى جانب العرافين جماعة من الأطباء تقدم النصح السليم للمرضى وتصف لهم بعض الأعشاب والنباتات. ومنهم الحارث بن كلدة الثقفي الذي تعلم الطب في جنديسابور، وشاهد النبيّ ﷺ عندما طلب إليه علاج سعد بن أبي وقاص عند مرضه في حجة الوداع [1]،وابنه النضر،

---

(١) عاشور المدنية الاسلامية وأثرها على الحضارة الأوروبية ص١٤٨ الطبعة الثانية ١٩٨٢ مكتبة الانجلو المصرية.

ومنهم عبد الملك بن أبجر الكناني الذي أسلم، وكان يدرس في انطاكية وحران ومنهم ابن ابي رمثة الكناني الذي كان مزاولا لأعمال اليد وصناعة الجراح [٢].

وفي العصر الاسلامي اهتم المسلمون بالطب وعنوا به عناية فائقة. قال النبي ﷺ: العلم علمان: علم الأديان وعلم الابدان». [٣] وفي الموطأ عن زيد بن الأسلم أن رسول الله ﷺ قال: أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء [٤]

وجاء في رسائل اخوان الصفا: [اعلم يا أخي أن مداواة العلل الحالّة بالأجسام والعلم بذلك من أجلّ المعلومات الطبيعية والمعارف الجسمانية].

على أن العمل في هذه الصناعة لم يقتصر على الرجال فقط وانما نبغ فيه عدد غير قليل من النساء كما سنرى فيما بعد.

عرّف العرب الطب بأنه «حفظ الصحة موجودةً وردها مفقودةً».
او كما قال الرئيس ابن سينا «الطب حفظ صحة وبرء مرض». وهذا الايجاز البليغ يدل على مضمون ومفهوم الخدمات الطبية المطلوبة لتأمين العلاج وتوفير الرعاية الطبية للمرضى والمحافظة على الصحة ووقايتها. وهم بهذا قد أجملوا المفهومين معا الطب العلاجي والطب الوقائي في جملة واحدة. ولأجل ذلك اعتنوا بالتعليم الطبي وتأهيل الطبيب وبناء المستشفيات والملاجىء ودور السبيل والتمريض وكانوا روادا في ذلك المضمار.

نشأة المستشفيات

لقد قام رجال الدين لآلاف السنين قبل الميلاد بعلاج المرض وكانت المعابد تقوم بدور المدارس الطبية في تعليم الاطباء بالاضافة الى وجود أماكن فيها لراحة المرضى

---

(٢) ابن ابي اصبيعة: عيون الانباء في طبقات الاطباء ص١٦١ – ١٧١ منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. ١٩٦٥.

(٣) رسائل اخوان الصفا: ج٤ ص٣٦٠ طبعة القاهرة نقلها عاشور: المدنية الاسلامية واثرها على الحضارة الاوروبية ص١٦٣. الطبعة الثانية ١٩٨٢ مكتبة الانجلو المصرية.

(٤) د. احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص٥ المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٣٩.

وعلاجهم، وكانت مثل هذه المعابد موجودة في مصر واليونان وفارس والهند. اما في فترة ما بعد الميلاد فان أول مستشفى في اوروبا هو أوثيل ديو في ليون في فرنسا، حسب ما ورد في دائرة المعارف البريطانية(٥).

البيمارستان بفتح الراء وسكون السين كلمة فارسية مركبة: بيمار بمعنى مريض او مصاب وستان بمعنى مكان او دار فهي اذا دار المريض، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان كما ذكرها الجوهري في صحاحه. فلقد بقيت البيمارستانات تعالج جميع الأمراض إلى أن أصابتها الكوارث وحل بها البوار وهجرها أهلها فأقفرت إلا من المجانين فصارت كلمة مارستان تدل على مأوى المجانين.

ولعل أول بيمارستان أو مستشفى في الاسلام هو تلك الخيمة التي أمر النبي ﷺ باقامتها إبان غزوة الخندق، فعندما أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام: [اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب]★ فكانت تلك الخيمة أول مستشفى في الاسلام.

يرى مايرهوف أن المسلمين اتخذوا من بيمارستان جنديسابور ومدرستها الطبية نموذجا لفكرة البيمارستان ونظامها وخاصة في بداية الدولة العباسية.(٦).

أما المقريزي فقد ذكر أن الوليد بن عبد الملك كان أول من أنشأ البيمارستان المكتمل الذي عرفته الدولة الاسلامية فيما بعد. يقول المقريزي: «... إن أول من بنى البيمارستان في الاسلام هو الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموي سنة ٨٨هـ (٧٠٦م) وجعل فيه الأطباء وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق»(٧). كما أمر بتخصيص دليل لكل مريض، وخادم لكل مقعد يسهر على راحته(٨). وهذا يدل على النظرة الانسانية نحو المعوقين التي تحلى بها ولاة الأمور.

---

(٥) د. خلقي خنفر: تاريخ الطب في الاسلام ص٤٧.

★ الجزء الثاني من تخريج الدلالات السمعية. نقله احمد عيسى.

(٦) نفس المصدر: ص٤٧ عن تاريخ الطب العربي ليحيى الشريف ص٤٤.

(٧) المقريزي: الخطط ج ٤ ص٢٥٨.

(٨) احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص١٠

ولكن لم تقم أهمية حقيقية لحركة إنشاء المستشفيات إلا في العصر العباسي عندما أنشأ الرشيد أول بيمارستان في بغداد وأمر جبريل بن بختيشوع أن يتولى رعايته[٩] وفي سنة ست وثلاثماية هجرية أنشأ الخليفة المقتدر بالله العباسي البيمارستان المقتدري بناء على نصيحة من سنان بن ثابت في باب الشام ببغداد، وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار[١٠] وسماه البيمارستان المقتدري ثم شيد بيمارستان دمشق ٧٠٦م وهناك أيضا مستشفى عضد الدولة في بغداد بأقسامه الواسعة.

وسرعان ما انتشر إنشاء المستشفيات حتى بلغ عددها في العراق والجزيرة ثمانية عشر، وفي بلاد الشام عشرين، وفي الحجاز اثنين واحداً في مكة وآخر في المدينة. وفي ايران ثمانية أشهرها بيمارستان الري الذي كان يديره الرازي قبل انتقاله الى بغداد. وفي تركيا ستة،وكان في قرطبة وحدها خمسون مستشفى في اواسط القرن العاشر الميلادي ولعل من اهم المستشفيات في دمشق المستشفى النّوري (٥٤٩ هـ) الذي بناه نور الدين زنكي بالأموال التي أخذها لقاء إطلاق سراح ملك الفرنجة. وفي القاهرة المستشفى المنصوري الذي بناه السلطان قلاوون بعد وصوله الى الحكم، وكان من أعظم المستشفيات وأغناها[١١]. وفي هذين المثلين الأخيرين عبرة جديرة بالتأمل بكل دقة وعناية: هذا سلطان يغنم مالا كثيرا في الحرب ولا ينفق ذلك المال الا في عمل الخير لإسعاد شعبه، وذلك سلطان وفيّ بوعده بعد أن نصره الله وأوصله إلى الحكم.

وقد عني المسلمون بمشافيهم عناية فائقة كما يظهر من كتابات ابن بطوطة والمقريزي وغيرهما التي توضح لنا كيف كانت تلك المشافي على درجة من النظام والعناية بالمرضى، لا تقل في ذلك عن المستشفيات الحديثة.

وفي المقابل وفي الفترة التي سبقت القرن الثاني عشر انعدمت المعلومات الاوروبية في الطب بسبب الجهل وتزمت رجال الدين.. حتى اعتبروا المرض نوعا من العقاب الالهي لا يصح للانسان أن يعالجه أو يبرأ منه. وعدّ التعاطي بعقاقير غير عقاقير الكنيسة وأدوية الروح أو ممارسة الطب وإجراء العمليات الجراحية بالالات دون مركز الكنيسة ودون

---

(٩) احمد عيسى تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص١٧٨ عن ابن القفطي في تاريخ الحكماء ص٣٨٣ ليبسك.
(١٠) ابن القفطي تاريخ الحكماء.
(١١) هونكة شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٣٠.

جلالة الروح وقدسيتها وكان الشعار :

Inhonestum Magisitrum In Medicina Manu Operari

أي إنه لمشين حقا ان يعمل الطبيب بيديه[١٢].

ويبين الوصف التالي الذي أوردته (هونكه) بؤس الأوضاع التي كانت سائدة في مستشفى دير :

[كان ثمة قش كثير موضوع على الأرض تزاحم عليه المرضى... أقدام بعضهم الى جانب رؤوس الاخرين... الاطفال قرب الشيوخ والرجال بجانب النساء بشكل يدعو للعجب ولكنه كان حقيقيا... قرب المتوعكين توعكاً بسيطا ذوو أمراض معدية... الحبلى التي تعاني الآم المخاض والطفل الذي يعالج سكرات الموت... الطعام سيء يقدم بقلة وندرة وفي أوقات متباعدة[١٣].

وسنبين فيما يلي لماذا امتازت المشافي الاسلامية وارتقت الى درجة رفيعة شهد لها الكثيرون أمثال جومار أحد العلماء أثناء حملة نابليون على مصر وبريس دافن وغيرهما.

كان المسلمون قبل إقامة مستشفى جديد يدققون في اختيار المكان الصحي المناسب كما يتضح مما فعله الرازي حين علّق بعض قطع اللحم من ذبيحة واحدة في أحياء مختلفة من بغداد واختيار الحي الذي تأخر فيه فساد اللحم كأصلح حي لبناء البيمارستان[١٤] وعندما حوّل صلاح الدين أحد قصوره الى المستشفى الناصري اختار القصر الذي لا تكثر فيه جموع النمل والبعيد عن الضوضاء[١٥]

وكان يقبل في البيمارستان كل مريض من كل أبناء الشعب دون تمييز بغض النظر عن لونه أو دينه أو جنسه ذكرا كان أم أنثى. وبعد شفائه كان يعطى بدلة من الثياب ومبلغا من المال يكفيه العوز الى أن يصبح قادرا على العمل والذي يموت كان يجهز على حساب البيمارستان[١٦]. فعند انتهاء تأسيس المستشفى المنصوري بالقاهرة مثلا

---

(١٢) المصدر نفسه ص ٢٢٠.

(١٣) هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٢٥-٢٢٦.

(١٤) ابن ابي اصبيعة : عيون الانباء في طبقات الا طباء ص ٤١٥.

(١٥) هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٢٩.

(١٦) احمد عيسى تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٨٦.

قال السلطان قلاوون :

إني قد وهبت هذا المستشفى الى أندادي وأتباعي، وخصصته للحكام والخدم، للجنود والامراء، للكبار والصغار، للأحرار والعبيد للرجال والنساء(١٧). وقد ذكر الشطي نقلا عن خالد البلوي أن عدد المرضى المقبولين والمصروفين فيه كان يبلغ أربعة الاف يوميا (١٨).

ولم يكن تأسيس المستشفيات وقفا على الخلفاء والسلاطين والاغنياء وانما دأب في تأسيسها الأطباء من أمثال سنان بن ثابت وثابت بن سنان وابن ثابت بن قرة.

ويبين الجدول التالي أسماء البيمارستانات ودور الشفاء ومدارس العلاج مرتبة حسب حروف الهجاء(١٩).

---

(١٧) هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص٢٢٩ .

(١٨) الشطي العرب والطب ص٩٨ .

(١٩) هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٤٠-٣٤٢ .

جدول (١)

فهرست البيمارستانات ودور الشفاء ومدارس العلاج

بيمارستان أبي الحسن
بيمارستان أحمد بن طولون
بيمارستان اخر بحلب
بيمارستان ادرنة
بيمارستان ارغون الكاملي
بيمارستان الاسفل
بيمارستان الاسكندرية
بيمارستان اصبهان
بيمارستان الأعلى
بيمارستان أماصية
بيمارستان أنطاكية
بيمارستان باب البريد
بيمارستان باب محول
بيمارستان بدر غلام المعتضد
بيمارستان البرامكة
بيمارستان تبريز
بيمارستان تونس
بيمارستان ثابت
بيمارستان الجبل
بيمارستان الجديد بحلب
بيمارستان الجذام بأدرنة
بيمارستان جنديسابور

بيمارستان حران
بيمارستان حصن الاكراد
بيمارستان حماة
بيمارستان خاصكي سلطان
بيمارستان خوارزم
بيمارستان الدقاني
بيمارستان ديوركي
بيمارستان الرشيد
بيمارستان الرملة
بيمارستان الري
بيمارستان زرنج
بيمارستان زقاق القناديل
بيمارستان السقطيين
بيمارستان سلا
بيمارستان السلطان احمد
بيمارستان السلطان سليمان
بيمارستان السيدة
بيمارستان سيدي فرج
بيمارستان شيراز
بيمارستان الصالحية او القميري
بيمارستان الصغير بدمشق
بيمارستان صفد

مارستان قلاوون
مارستان ثوتلوغ توركان
المدرسة الداخورية
المدرسة شفائية غيائية
الشفائية بسيواس
بيمارستان العتيق
بيمارستان العضدي
بيمارستان علاء الدين قيقباد
بيمارستان ابن الحسن علي بن عيسى
بيمارستان علي فرنانة
بيمارستان غرناطة
بيمارستان غزة
بيمارستان الفارقي بميافارقين
بيمارستان القدس
بيمارستان القشاشين
بيمارستان قيسارية أو دار شفاء
بيمارستان القيمري
بيمارستان كافور الأخشيد
بيمارستان الكبير المنصوري
بيمارستان الكبير النوري
بيمارستان الكرك
بيمارستان محمد بن علي خلف
بيمارستان محمد الفاتح
بيمارستان المحول
بيمارستان المدينة
بيمارستان مرو
بيمارستان المستنصري
بيمارستان المعافر
بيمارستان مكة
بيمارستان المنصور أبي يوسف
بيمارستان الموصل
بيمارستان المؤيدي
بيمارستان نابلس
بيمارستان الناصري أو الصلاحي
بيمارستان نصيبين
بيمارستان النووي أو العتيق بحلب
بيمارستان واسط
بيمارستان والدة سلطان
بيمارستانات الوليد بن عبد الملك
بيمارستانات أخرى ببلاد الروم
بيمارستان الاندلس
بيمارستان ايران
بيمارستان بغداد
بيمارستانات بلاد الروم
بيمارستانات الجزيرة العربية
بيمارستانات الشام
بيمارستانات العراق والجزيرة
بيمارستانات متنقلة
بيمارستان مصر
بيمارستان المغرب
بيمارستان دار الشفا
دار الشفا بمدينة ديوركي
دار الشفاء بقيسارية
دار الشفا المنصوري
بيمارستان الطب ببروسة

البناء والتقسيم الفني والاداري للبيمارستان

كانت أغلب البيمارستانات تبنى في أحسن المواقع على الربوات وجوانب الأنهار. وكانت قاعاتها فسيحة حسنة البناء يجري فيها الماء. والعمل فيها يسير حسب نظام تام.

كانت هذه المستشفيات مقسّمة الى قسمين منفصلين تماما، قسم للذكور وآخر للاناث، وكل قسم مجهز بالآلات والعدة والخدم والفراشين من الرجال والنساء وقوامين ومشرفين، وكان لكل مريض شخصان يقومان على خدمته. وفي كل قسم قاعة للامراض الباطنية وأخرى للجراحة وثالثة للكحالة ورابعة للتجبير. وكانت قاعة الامراض الباطنية مقسمة الى قسم للمحمومين (المصابين بالحمى)، وقسم للممرورين (المصابين بالجنون السبعي – مانيا)، وقسم لمن عندهم اسهال، وقسم للمبرورين اي المتخومين... الخ. وكذلك كانت هنالك شعب للحوادث والاصابات العينية [٢٠]. ولكل مريض سرير مستقل، فلقد أدرك المسلمون خطورة العدوى فخصصوا فراشا لكل مريض كما خصصوا مستشفيات خاصة لأمراض معينة كالجذام [٢١].

وذكر بريس دافن [٢٢] ان القاعات كانت تدفأ باحراق البخور وتبرد بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة الى الطرف الآخر، وتغطى أرض القاعات بأوراق الحناء أو الرمان او المصطكى او بالشجيرات العطرية. وكانت الأجواق تسلي المرضى بالغناء أو العزف على الالات الموسيقية، والمؤذنون يؤذنون في السحر وفي الفجر ساعتين لتخفيف قلق المرضى الذين أضجرهم السهر. وقد شاهد علماء الحملة الفرنسية هذه العناية بأنفسهم [٢٣].

وكانت أسماء المرضى تقيد في سجلات، وبعد إدخالهم يعطون حماما وثيابا نظيفة وترسل ثيابهم القديمة الى المخزن. وكان السلطان حريصا على الالمام بكل ما يجري في المستشفيات يزورها من وقت الى آخر، ويفتش عليها ويستجوب المسئولين والمرضى ليطمئن على سير الامور.

---

(٢٠) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص١٨–١٩.

(٢١) الشطي: العرب والطب ص٩٤.

(٢٢) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص١٠٢

(٢٣) نفس المصدر: ص١٠٢.

مالية المستشفيات

كان الانفاق على هذه المستشفيات يتطلب إيرادا منظما ثابتا ودقيقا. وسبب تخصيص الاموال الكثيرة يرجع الى مجانية العلاج للجميع وتقديم الغذاء والعقاقير والالبسة مجانا إضافة الى تعويض مالي لمدة شهر كامل يأخذونه عند الشفاء. ولقد كان المستشفى المنصوري وحده يستهلك ما قيمته مليون درهم(٢٤)، أما نفقات كل مريض فيه فكانت في كل يوم دينارا واحدا(٢٥).

كانت كل تلك المصاريف تسدد من مال الوقف الخاص بالمستشفى والذي كان يسجل في حجج مكتوبة، وبعضها كان ينقش على الحجارة مبيّنا ان الغاية منها هي تسيير أمور المستشفى والعناية بالمرضى. وكان مدير المستشفى مسؤولا عن اعداد سجل لجميع المصاريف اليومية والميزانية ومرتبات الأطباء وغيرها وأثمان الأجهزة والأدوية.

وللبيمارستان صيدلية كانت تسمى شراب خاناة (خزانة الشراب أو بيت الشراب) ولها رئيس يسمى شيخ صيدلي البيمارستان(٢٦)... وكان في الصيدلية أنواع الأشربة والمعاجين والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات وفيها من الآنية النفيسة ما لا يستطيعه أحد. ولقد جاء في وصف ابن دقماق لبيمارستان كافور الاخشيد بالفسطاط: [... ان هذا البيمارستان كان فيه من الأزيار الصيني الكبار.. والقدور النحاس.. والطسوت وغير ذلك ما يساوي ثلاثة آلاف دينار](٢٧)

ولكل شراب خاناة أو الصيدلية مهثار - (من الفارسية ومهثر تعني الرئيس) يتسلم حواصلها. له مكانة عالية وتحت يديه غلمان(٢٨)، وهو يراقب كل ما يعمل في الصيدلية.

إدارة البيمارستان وأطباؤه

كان لكل بيمارستان ناظر أو رئيس يدير كل فروعه يسمى ساعور المرضى[وهي كلمة

---

(٢٤) هونكة شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٣١.

(٢٥) الشطي العرب والطب ص ١٠٠.

(٢٦) احمد عيسى تاريخ البيمارستان في الاسلام ص ١٩ عن ابن ابي اصبيعة ح١ ص ٣٠٩.

(٢٧) نفس المصدر ص ٧٤.

(٢٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ، ص ٤٩٦.

سريانية تعني متفقد المرضى] (٢٩) وكان منصبهم هذا يعد من الوظائف الديوانية العظمى كما ذكر القلقشندي [... ان منها نيابة السلطة وهي من أجل نيابات المملكة الشامية ومعه يكون ناظر البيمارستان النوري بدمشق وناظر البيمارستان المنصوري بالقاهرة] (٣٠)، وتحت عنوان أنواع أعيان المملكة وأرباب المناصب قال القلقشندي: [ان منها صحابة ديوان البيمارستان وموضوعها التحدث في كل ما يتحدث به ناظر البيمارستان] (٣١) وكان لكل قسم رئيس خاص به، ففي موضوع آخر ذكر القلقشندي [... وظائف أرباب الصناعات منها رياسة الطب ورياسة الجراحين... وولاية كل منها بتوقيع كريم عن النائب] (٣٢) وكان الناظر عادة واحدا من الأمراء أو القادة الكبار أو أحد عظماء الدولة (٣٣) فقد ذكر ابن اياس [أن نظر البيمارستان كان من أهم وظائف الدولة يتولاه الأتابكي ويذهب إليه في حفلة حافلة] (٣٤).

ويدل هذا الاختيار وذلك التصنيف في الرتب على الأهمية الكبيرة التي أولاها السلاطين والولاة لناظر البيمارستان رغبة منهم في حسن تسيير أمور البيمارستان ورعاية صحة المواطنين.

وكان للناظر الأمر المطلق في الادارة، وتحت يده ناظر الوقف الذي كان يقدم للناظر الميزانية ليبت فيها.

أما عدد الأطباء في البيمارستان فكان يتوقف على سعة المستشفى فقد يصل في بعض الأحيان الى أربعة وعشرين طبيبا (٣٥).

وكان للخليفة طبيب يعرف بطبيب الخاص، يجلس كل يوم على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر ودونه أربعة أطباء أو ثلاثة فيخرج الأستاذون فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر... فيكتب لهم رقاعا إلى

(٢٩) احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام عن ابي اصبيعة ج ١ ص ١٩.

(٣٠) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨٤

(٣١) نفس المصدر : ج ٤ ص ٣٤

(٣٢) نفس المصدر : ج ٤ ص ٢٢٢

(٣٣) اسعد خير الله : الطب العربي ص ٧٣

(٣٤) احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٣، عن ابن اياس بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٢، ص ١٩٢.

(٣٥) نفس المصدر : ١٨٩.

خزانة الشراب فيأخذون ما فيها وتبقى الرقاع عند مباشريها شاهدا لهم] [٣٦]

وأما الإشراف الطبي فكان من صلاحية رئيس الأطباء فقط وهو الذي [يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم في التطبيب ونحو ذلك] [٣٧]. وكان يتم اختياره من بين العديد من زملائه بعد اجتيازه امتحانا دقيقا لكفاياته العلمية. ومثال ذلك أن الرازي قبل اختياره لمنصبه اضطر أن يبرهن على طول باعه وتضلعه من فن الطب أمام مئة منافس وأن يبزهم جميعا في المسابقة. وبعد تسلمه لمنصبه أصبح له فريق يتجاوز الاربعة والعشرين منهم المختص بالأمراض الداخلية، ومنهم المختص بالأمراض العصبية، ومنهم الجراحون والمتضلعون في امراض المفاصل والعظم ومنهم اطباء العيون. وكان كل واحد منهم يتسلم إدارة قسم ما مدة من الزمن ثم يخليه لزميله في الاختصاص. وكان رؤساء الشعب ذوي مقدرة فائقة ومعرفة عميقة يراقبون المرضى يوميا ويستشير بعضهم بعضا».

أما التفتيش على البيمارستان فكان من اختصاص صاحب الحسبة أو المحتسب، وهي وظيفة رفيعة الشأن وموضوعها التحدث عن الأمر والنهي والأخذ على يد الخارج عن الطريق السوي [٣٨]، وكان له الحق في تفقد أحوال المرضى ودرجة العناية بهم والطعام المقدم لهم ونظافتهم وسهر الخدم عليهم واعتناء الأطباء بهم وصحة معالجتهم، وله الحق في معاقبة المقصر، فان كان طبيبا أو صيدليا منع من الاستمرار في ممارسة مهنته، وكذلك كان له الحق في طرد المخالف من بقية الموظفين.

هذا وكانت المستشفيات الكبيرة بالاضافة الى ذلك بمثابة مدارس عالية للطب يتلقى فيها الطلاب دروس الطب بصورة تطبيقية. [٣٩]

أرزاق الاطباء:

كان للاطباء على وجه العموم من اولي الامر الاحسانُ الكبير والأفضالُ العزيزة كما كانت تعطى للاطباء الجراية وعلوفة الدابة التي يركبونها.

---

(٣٦) القلقشندي: صبح الاعشى ج ٣، ص ٤٩٢.

(٣٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٦٧.

(٣٨) القلقشندي: صبح الاعشى ج ٥ ٤٥٢.

(٣٩) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص ٢٨٨. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

وهنا أود أن انبه أنه لا يحق للغرب أن يتباهى في السبق في ابتداع فكرة التنقل للموظفين لأن المسلمين قد سبقوهم في ذلك بمئات السنين.

واما المرتبات الشهرية فكانت كالتالي:

١ . أطباء الخاص (للخليفة وللسلطان) كانا اثنين لكل منهما في الشهر خمسون دينارا (الدينار يساوي خمسة عشر فرنكا ذهبيا) (٤٠)

٢ . الأطباء المقيمون في القصر من ٣-٤ . لكل واحد عشرة دنانير وذكر ابن أبي اصبيعة أنه كان لكل طبيب بالبيمارستان ما يقوم بكفايته(٤١).

ويقول ابن القفطي إنه كان للاطباء بالبيمارستان على العموم جامكية خمسة عشر دينارا، كما كان لبعضهم رزقان اي ثلاثون دينارا كل شهر لعملين مختلفين كرضيّ الدين الرحبي طبيب البيمارستان الناصري(٤٢)، ولجبرائيل الكحال الف درهم في كل شهر(٤٣) (الدرهم يساوي نصف الفرنك الفرنسي ذهبا تقريبا) وجبريل بن بختيشوع يأخذ رزقين برسم الخاص وبرسم البيمارستان عدا الجراية(٤٤) كما كان من أطباء سيف الدولة الحمداني من يأخذ رزقين لتعاطيه عملين ومن يأخذ ثلاثة ارزاق مثل عيسى النفيس الذي كان يأخذ رزقا للنقل من السريانية الى العربية ورزقين بسبب عملين اخرين(٤٥).

ومن هذا نرى كيف اهتم أولي الامر بتوفير الدخل الكافي للطبيب ليقدم أفضل الخدمات ولمنع الجشع ولتشجيع الترجمة والعلم. ومن الطريف أن نذكر أن المبلغ الذي كان يتقاضاه الكحال عن علاج مرض السادّ كان ثمانين درهما (جنيهان مصريان في ١٣٣٩). ونعتقد أن في هذا نوعاً من تحديد الاجور لمنع الجشع ولاحترام الخبرة الطبية.

---

(٤٠) احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٨ . عن الخطط التوفيقية لعلي مبارك باشا ج٤ ص ٤٦ .
(٤١) نفس المصدر: ص ٢٨.
(٤٢) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص ١٤٨.
(٤٣) نفس المصدر: ص ١٥٢.
(٤٤) احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٩.
(٤٥) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص ٢٥٠.

نظام المعالجة في البيمارستان

لم يختلف ذلك النظام في أصوله عما يجري الان في مستشفياتنا فقد كان هناك نوعان من المعالجة : العلاج الخارجي ، والعلاج الداخلي.(٤٦)

العلاج الخارجي ويشبه نظام العيادة الخارجية في هذه الأيام، كان الطبيب يكشف عن المريض ويكتب له أوراقا يعتمدون عليها ، ويأخذون بها الأدوية الموصوفة (مثل الوصفة الطبية التي نعرفها) . وهذا يرينا أن المسلمين كانوا أول من أوجد نظام العيادة الخارجية في المستشفيات ، وأول من ألحق بها الصيدليات القانونية.

وكان هنالك نوع آخر من العيادات الخارجية الخاصة ، ففي عام ٩٢٣ م أقام الوزير ابن الفرات في بغداد عيادة جامعة على نفقته الخاصة خصصها للموظفين عنده ، كان لهم الحق في التداوي فيها دون مقابل(٤٧). وهذا ، لا شك ، نوع من الضمان الصحي للموظفين تتباهى بعض دول عالمنا الحاضر في توفيره لموظفيها مع أن الدولة الاسلامية قد سبقتهم في مثل هذه العناية الصحية قبل ذلك بقرون عديدة.

العلاج الداخلي كان المرضى يوزعون على مختلف القاعات حسب أمراضهم ، ولكل قسم طبيب أو اثنان أو ثلاثة حسب سعة القسم ، وعدد المرضى . وكان الأطباء يقومون بالمرور السريري مع معاونيهم كل يوم ، وكان يستدعى طبيب آخر للاستشارة عند الضرورة ، مما يظهر الروح العلمية والتعاونية التي كانت عندهم.

أما عن المناوبات فكان الأطباء يتناوبون العمل . فمنهم من كان يلازم ليلا ونهارا وهو يشبه عمل الطبيب الخفر أو المقيم ، ومنهم من كان يلازم يوما أو أكثر في الأسبوع وهو ما يشبه عمل الطبيب المنتظر ، فجبريل بن بختيشوع مثلا كان يناوب يومين وليلتين في الأسبوع(٤٨)

---

(٤٦) د. محمود الحاج قاسم محمد : الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به. ص ١١١ عن ابي أصيبعة ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٤٧) هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٣١ .

(٤٨) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٣٠٢ ، عن ابي اصيبعة ج٢ ص ٢٤٣ .

ولقد خصصوا لكل مريض بطاقة يدوّن فيها الطبيب ملاحظاته ويبين فيها تجاربه واختباراته. وكان بعض هذه الملاحظات في النهاية مرجعا له ولغيره من بعده. فمثلا دوّن الرازي خلاصة تجاربه وملاحظاته في كتابه الحاوي. وكما ذكر علي بن العباس بان ملاحظاته قد جمعت من البيمارستانات وليس من النقل من الكتب والمؤلفات(٤٩).

أما النصائح الطبية التي كانت تقدم فكانت مبنية على أسس علمية لا تختلف كثيرا عما ننصح به في هذه الايام فلقد نصح ابن سينا بتعديل الطعام في كميته بحيث لا يزيد او يقل عن اللازم، ونصح ابن قرة بتجنب بعض المأكولات لمنع الحصى البولية، كما كان الأطباء شديدي الحماس في دعوتهم الى الاستحمام وخاصة عند الاصابة بالحميات والى استخدام حمام البخار. ولقد تكلم ابن رشد عن اثر الرياضة والتدليك والنوم وكيفية رياضة الشيوخ.

أنواع المشافي

كان منها الثابتة ومنها المتنقلة.

أما الثابتة فكانت على نوعين أحدهما مشافٍ عامة، والآخر مشافٍ خاصة.

المشافي العامة: كان لكل مدينة كبيرة مستشفى واحد على الاقل وهو مؤسسة حكومية يشيدها ويقوم بنفقاتها أحد الخلفاء أو الامراء. ولقد سبق وصفها بالتفصيل.

المشافي الخاصة

أ . طبابة السجون: لم يقبل المسلمون حرمان المسجونين من الرعاية الطبية، ولأول مرة في التاريخ، ومن أجل هذه الخدمة النبيلة لاحظ ضرورة ذلك الوزير علي بن عيسى الجراح وزير الخليفة المقتدر بالله العباسي، يقول ثابت بن سنان: وقع الوزير علي بن عيسى ابن الجراح الى والدي سنان يقول فيه:

---

(٤٩) قدري طوقان: العلوم عند العرب ص ٨

فكرت، مدّ الله في عمرك، في أمر من في الحبوس... وانه لا يخلو أن تنالهم الأمراض... فينبغي أن تفرد له أطباء يدخلون اليهم في كل يوم وتحمل اليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس، يعالجون فيها المرضى.... الخ] ففعل سنان ذلك طوال أيامه(٥٠). وإنني أتساءل هنا كم من السجون في العالم اليوم تنعم بمثل هذه الخدمات؟!؟

ب . **طبابة المدارس:** بعد أن توسعت دور العلم والمدارس كان ضروريا أن يخصص طبيب ليشرف عليها. فمثلا كان في المدرسة المستنصرية ببغداد طبيب يقوم بفحص المرضى ووصف الأدوية من الصيدلية الخاصة في المدرسة وكذلك كان الحال في مدارس أخرى (٥١)

ج . **دور المجانين:** عندما كان الجنون في أوروبا يعد ضربا من الأمراض الشيطانية والمجانين يقيدون بالسلاسل ويضربون عند صراخهم(٥٢) كان الجنون يعامل في الطب الاسلامي مثل أي مرض آخر يجب علاجه، ولذلك أنشأوا المستشفيات لتلك الغاية منذ القرن الأول للهجرة. جاء في صك أوقاف المستشفى النوري أو العتيق في حلب أن كل مجنون يجب أن يخصص له خادمان ينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحممانه ويلبسانه ثيابا نظيفة ويحملانه على الصلاة وسماع ترتيل القرآن كما يفسحانه في الهواء الطلق ثم يسمح له بالاستماع الى الغناء والاصوات الجميلة والموسيقى (٥٣). كما كانوا يعالجونهم بالعقاقير والطرق النفسية.

وكانت هذه الدور إما خاصة بهم أو ملحقة بالمستشفيات الكبيرة لكي يتفقد كبار أطباء المستشفى أحوالهم كما كانت الحال في القاهرة في القرن السادس الهجري

---

(٥٠) ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٣٠١. دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥.

(٥١) د. محمود الحاج قاسم محمد: الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ص ١١٣ عن سعيد الديوجي. دور العلاج والرعاية في الاسلام. المجلة الطبية الموصلية العدد الثالث الجزء الاول ١٩٦٦.

(٥٢) أمين أسعد خير الله: الطب العربي ص٦٩.

(٥٣) الشطي: العرب والطب ص٩٥.

د . **مستشفيات الجذام**: كان المجذومون يعاملون عند غير المسلمين بقسوة، دليل ذلك أن فيليب الجميل ملك فرنسا أمر بحرق جميع المجذومين (١٣١٣) ولم يتم بناء أي مستشفى للجذام في أوروبا قبل القرن الثاني عشر وقد نقل الصليبيون الفكرة بعد ذلك عن المسلمين(٥٥). على حين كان اول مستشفى للمجذومين في الاسلام قد أنشأه الوليد بن عبد الملك في سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م(٥٦)

هـ . **مراكز الاسعاف**: وكانت تقام في أماكن الازدحام كالمساجد وأيام المهرجانات والمواسم والأعياد، حيث كان الاطباء والصيادلة يقومون بمعالجة المصابين بالحوادث. وأول من انشأ مثل هذه المراكز هو أحمد بن طولون (٢٢٠ - ٢٧٠ هـ). (٥٧)

المشافي المتنقلة: كانت على أنواع عدة منها:

أ . **المشافي المحمولة**: وهي عبارة عن مستشفى مجهز بالأطباء والصيادلة وبكل ما يلزم من أدوات وأطعمة وأشربة. وكانت تنقل من بلد الى آخر خال من المشافي الثابتة حسب ظروف المرض والأوبئة وانتشارها. ومن الراجح أن المسلمين كانوا أول من أنشأ هذا النوع من المستشفيات، والفضل في ذلك يعود الى علي بن عيسى بن الجراح الذي كتب الى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد: [فكرت في من في السواد من أهله فانه لا يخلو ان يكون فيه مرض لا يشرف عليهم متطبب لخلو السواد من الاطباء فتقدم... بانفاذ مطببين وخزانة للادوية والاشربة يطوفون في السواد... ثم ينتقلون الى غيره] (٥٨)

ويذكر بين المشافي المتنقلة ما رواه ابن خلكان وابن القفطي أن أبا الحكم المعزي

---

(٥٥) امين اسعد خير الله: الطب العربي ص٦٩.

(٥٦) الشطي: العرب والطب، ص ٩٤.

(٥٧) احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص٧٢، من كتاب اسرار الحكماء لياقوت المستعصمي ص ١٠٨ طبع الجوائب.

(٥٨) ابن ابي اصبيعة: عيون الأنباء في طبقات الاطباء ص ٣٠١ منشورات دار الحياة بيروت ١٩٦٥.

نزيل دمشق كان طبيبا ببيمارستان متنقل يحمله أربعون جملا[٥٩].

واعتاد السلطان في دولة المماليك أن يخرج الى القصور خارج المدن ومعه ما يلزم من الأطباء والجراحين والاشربة والعقاقير... بما يكون بيمارستانا كاملا متنقلا في ركاب السلطان[٦٠].

ب. **المشافي الحربية**: كانت ترافق الجيش في الحرب والسلم محمولةً على ظهور الجمال والبغال وفيها محامل واسعة لنقل المرضى وهو ما يعرف الان بالاسعاف وكان لها أطباؤها وصيادلتها، فمثلا: بيمارستان حبيش السلطان محمود السلجوقي كان ينقل على أربعين جملا[٦١]. وكان ابن المطران يرافق صلاح الدين في كل حروبه وله خيمة حمراء خاصة به ذات مدخل كبير. وكذلك كانوا يحولون الجرحى الى النساء لتمريضهم[٦٢].

ج - **مشافي الاسعاف الأولي**: كان الرسول (ﷺ) أول من أمر بإنشاء هذا النوع حين طلب أن يداوي جراح سعد بن معاذ في خيمة رفيدة[٦٣].

د. **بيمارستانات السبيل**: وهي نوع آخر من الإسعاف المتنقل أيام السلم فقد كانت ترافق قوافل الحجاج والتجار مجهزة بمواد الاسعاف والادوية وبرفقة طبيب وممرضين. وأول من قام بعمل هذا النوع من البيمارستان هو معاوية بن أبي سفيان[٦٤]

المكاتب والملاجىء الخيرية

هذا نوع آخر من الخدمات الطبية والرعاية الاجتماعية سبق فيه المسلمون غيرهم فقد

---

(٥٩) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص٩٦.

(٦٠) د. محمد حسين كامل: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص٢٣٣ المنظمة العربية للتربية والثقافة عن خطط المقريزي ج٢. ص ٢٠٠ مطبعة بولاق.

(٦١) د. محمد حسين كامل: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص٢٣٣ عن تاريخ الحكماء لابن القفطي ص٤٥ طبعة ليدن.

(٦٢) الشطي: العرب والطب ص ٩٦.

(٦٣) نفس المصدر ص ٦٥.

(٦٤) محمود الحاج قاسم محمد: الموجز لما اضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به؛ ص١١٤ عن مقال سعيد الديوه جي. دور العلاج والرعاية في الاسلام.

أنشأوا الملاجىء والمدارس الخيرية لحضانة الاطفال وايواء الأيتام وأبناء الفقراء وتعليمهم:

أ . دور المراضع والمياتم (دور الحضانة)

خصصت للاطفال الذين فقدوا أمهاتهم أو ممن كانوا من عائلات فقيرة ولم تكن هناك مرضعات لارضاعهم ورعايتهم. وأول من خصص دارا كاملة الاثاث واللوازم لذلك الغرض هو مظفر الدين كوكبوري (٥٤٩ - ٦٣٠ هـ) صاحب اربل، فقد خصص مرضعات وعين خدما وطبيبا. للعناية بصحتهم.(٦٥)

ب . **دور العجزة والمكافيف:** وقد شيدت خصيصا للمقعدين والعاجزين والمكافيف لايوائهم وإطعامهم. وأول من جمعهم في دور خاصة هو الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) واعطى لكل أعمى قائدا يعينه في تنقله والاشراف على العناية بامره. وخصص لكل مقعد خادما يقوم بشؤونه (٦٦)

دور المرأة العربية المسلمة:

ولن يكتمل هذا البحث قبل ان نعرف الدور الذي قامت به المرأة المسلمة في مضمار الخدمات الطبية.

لقد ساوى الاسلام بين الرجل والمرأة في حق التعليم والثقافة وأباح لها أن تحصل على ما تشاء من العلم والادب والثقافة. الا أنا نجد أن التعليم الطبي لم يكن منتشرا بين النساء انتشاره بين الرجال. ومع ذلك فقد برزت مجموعة من النساء، كان بينهن طبيبات عالمات في صناعة الطب ذكر لنا التاريخ سيرة قلة قليلة من الشهيرات وأغفل ذكر العديد منهن.

---

(٦٥) المصدر نفسه ص ١١٦.

(٦٦) محمود الحاج قاسم محمد: الموجز لما اضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ص ١١٦ عن مقال سعيد الديوه جي دور العلاج والرعاية في الأسلام.

ومع أن التمريض لم يكن فنا متميزاً قائماً برأسه، منفصلاً عن فنون الطب الا ان بعض نساء العرب مارسن التمريض في مختلف العصور.

كانت النساء اللاتي مارسن الخدمة الطبية على نوعين:

أ . **الطبيبات:**

وقد أجاز الشرع للنساء العمل بهذا الحقل من الطب؛ فقد نص الامام أحمد على أنه يجوز للمرأة ان تخدم الرجل وتشاهد عورته عند مرضه، وكذلك كان رأي الامام المحدث الحافظ الذهبي(٦٧).

واضافة الى اعمال التمريض ومداواة الجرحى في الحرب والسلم برزت نساء تفوقن في صناعة الطب أمثال:

١ . **رفيدة الأسلمية:** وكانت طبيبة متميزة بالجراحة. اختارها الرسول بالعمل في خيمة متنقلة وعهد اليها بمداواة جراح سعد بن معاذ يوم الخندق(٦٨). وذكر الدكتور جاسر ابو صفية ما رواه الواقدي في مغازي الرسول ﷺ انها «كانت تداوي الجرحى، وتلم الشعث وتقوم على الضائع والذي لا أحد له». وان معنى الشعث الأخذةُ وهي تتعلق بالمرضى او الجنود الذين يصابون بالدهش والاضطراب نتيجة المعركة. وخلص الدكتور ابو صفية الى ان رفيدة كانت تقوم بالعلاج النفسي الى جانب العلاج البدني مما يميزها عن فلورنس نايتنجيل التي كان عملها مقتصرا على التمريض فقط.

٢ . **ام عطية الانصارية:** اشتهرت بالجراحة وغزت مع الرسول ﷺ حيث كانت تداوي الجرحى وتقوم على المرضى(٦٩)

٣ . **كعيبة بنت سعد الاسلمية:** كانت لها خيمة تداوي فيها المرضى وتأسو الجرحى(٧٠)

---

(٦٧) الشطي: العرب والطب ص ٣٩.

(٦٨) محمد حسين كامل: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص ٢٣٤ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(٦٩) الشطي: العرب والطب.

(٧٠) المصدر نفسه ص ٤٠.

٤ . **أخت أبي بكر بن زهر وابنتها** وكانتا عالمتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء. وكانتا طبيبتين لاهل المنصور أبي يوسف يعقوب الذي لم يرض قبالة سواهما[٧١].

٥ . **أم الحسن بنت القاضي أحمد** بن عبد الله الطنجابي من أهل لوشة بالاندلس كانت تشارك في فنون الطب[٧٢]

٦ . **الشفاء بنت عبد الله**: اشتهرت بعلاج النملة (الاكزيما)[٧٣]

٧ . **ابنة شهاب** الدين بن الصائغ رئيس اطباء المنصوري. تولت مكان والدها في مشيخة الطب بعد وفاته[٧٤]

ب . الآسيات:

وهو العمل الثاني الذي قامت به المرأة المسلمة في الحقل الطبي. فاذا كان الغرب يفتخر بالممرضة فلورنس نايتنجيل التي كانت تنتمي الى الطبقة الراقية والتي دعت الى العمل في حقل التمريض واعتباره عملا شريفا فالاحرى بنا بل من واجبنا ان نرد هذا الفخار الى المرأة العربية في صدر الاسلام.

لم تتوان المرأة عن المساهمة في تقديم مختلف الخدمات الصحية كالتمريض والاسعاف في زمن السلم والحرب.

كان العرب يطلقون اسم الآسيات أو الأواسي على اللاتي يعملن في تضميد الجراح وجبر العظام والوقاية من النزف وغير ذلك. وقد اطلقت تلك التسمية لانهن كن يعالجن الجراح ويواسين الجريح، ويسرن الى المعارك مع الرجال حاملات أواني الماء واللفائف

---

(٧١) محمد حسين كامل: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص ٢٣٤-٢٣٥ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

(٧٢) المصدر نفسه ص ٢٣٥.

(٧٣) الشطي العرب والطب ص ٤٤.

(٧٤) المصدر نفسه ص ٣٩.

والجبائر. وكن ينفذن بين الرجال مسعفات معالجات وبعضهن اشتركن في القتال [٧٥].

لقد ذكر الدكتور احمد الشلبي في كتابه تاريخ التربية الاسلامية ص ٢٩٨ ان نوغانان قالت [... ان النساء المسلمات قمن في الحروب الاسلامية بالدور الذي تقوم به في العهد الحاضر منظمة الصليب الاحمر [٧٦].

وفيما يلي نقدم مختصراً لسيرة بعضهن:

١ . أميمة بنت قيس العفارية: كانت زعيمة للآسيات الطبيبات ولما تبلغ السابعة عشرة من العمر. وقد قلدها الرسول (ﷺ) قلادة في غزوة بدر تقديرا لبلائها وبقيت تلك القلادة تزين صدرها الى ان ماتت ودفنت معها [٧٧]

٢ . أم سليم: اشتركت مع الرسول ﷺ في بعض غزواته ومعها نسوة من الأنصار يسقين الماء ويداوين الجرحى. [٧٨]

٣ . أم سنان الأسلمية: اشتركت في غزوة خيبر [٧٩].

٤ . أم أيمن: اشتركت في معركة أُحد وكانت تسقي العطشى وتداوي الجرحى [٨٠]

٥ . الربيع بنت معوذ: كانت تسقي القوم وتخدمهم وتداوي الجرحى وترد القتلى الى المدينة [٨١].

٦ . نسيبة بنت كعب المازنية: اشتركت في غزوة بدر ويوم احد. وتصدت للدفاع عن الرسول (ﷺ) وكانت تسقي الجرحى وتضمد جروحهم [٨٢].

وأسهمت النساء أيضا في مساعدة الطبيب في عمله. فقد جاء أن الزهراوي كان

---

(٧٥) محمود الحاج قاسم محمد: الموجز لما اضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ص ١٣٠.

(٧٦) المصدر نفسه: ص ١٣٠.

(٧٧) محمد الحاج قاسم محمد: الموجز لما اضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ص ١٣١ عن الدكتور علي عبد الواحد وافي: المرأة في الاسلام ص ٣١.

(٧٨) المصدر نفسه ص ١٣١.

(٧٩) المصدر نفسه ص ١٣١.

(٨٠) المصدر نفسه ص ١٣١.

(٨١) محمود الحاج قاسم محمد: الموجز لما اضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة – ص ١٣١ مطبعة الارشاد بغداد. عن د. عبد الواحد وافي المرأة في الاسلام ص ٣١.

(٨٢) المصدر نفسه: ص ١٣١ عن ابن هشام ص ٣٤٢–٣٤٣.

يقف خلف ستار خفيف ويعطي ارشاداته المناسبة للقابلات في الحالات العسرة (٨٣).

هكذا كانت حال المستشفيات الاسلامية، وهكذا كانت الخدمات الطبية الرفيعة المستوى والخدمات الاجتماعية التي هدفت الى معالجة كل افراد الشعب مجانا واعانة الاطفال والمحتاجين، وهكذا كانت نظرة الخلفاء والملوك والسلاطين للعلم والارتقاء به لخدمة الشعب ورعايته وتقديم أفضل الخدمات الطبية له.

الا توافقني اذا أيها المستمع على فائدة دراسة كنوز تراثنا علها تكون حافزا لنا للسير الى الامام من اجل انطلاقة مبدعة توصل امتنا العربية والاسلامية الى مركز مرموق في مسيرة الحضارة العالمية؟؟.

---

(٨٣) محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص ٢٣٥ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

المحاضرة الرابعة

كتابة التاريخ عند العرب
الفكرة والمنهج

الأستاذ عبد العزيز الدوري
عضو المجمع

السبت ١٣ شعبان ١٤٠٧هـ / ١١ نيسان ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول المسعودي: «اذ كان كل علم فمن الأخبار يستخرج، وكل حكمة منها تستنبط، والفقه منها يستشار، والفصاحة منها تستفاد، وأصحاب القياس عليها ينون، وأهل المقالات بها يحتجون، ومعرفة الناس منها تؤخذ، وأمثال الحكماء فيها توجد، ومكارم الأخلاق منها تقتبس وآداب سياسة الملك والحرب فمنها تلتمس»[1]

هذا الشمول الذي يعطيه المسعودي لدور التاريخ توازيه ظاهرة بارزة هي هذا الانتاج الواسع في التأليف التاريخي الى حدّ يتعذّر أن نجدَ ما يوازيه لدى أمة أخرى. فهل هو نتاج ثقافي خصب فحسب، أم أنه في الواقع تعبير عن الشعور بأهمية الرسالة الاسلامية وبدور حملتها في التاريخ؟

لننظر الى كتابة التاريخ ونبدأ بفرضية تفيد أن المؤرخ الآن هو من يدرّس التاريخ ويكتب فيه ويُعترف به كذلك. ويمكن أن يُعَدَّ لذلك بالتعليم والتدريب والميل، وقد يتكوّن من خلال اهتماماته وانجازه دون إعداد خاص. هذا الوضع ناشىء عن التراث التاريخي من جهة، وعن أثر الثقافة والآراء الحديثة من جهة أخرى.

وللعرب تراث عريق في كتابة التاريخ. فقد بدأت دراسة التاريخ وكتابته منذ القرن الأول للهجرة، ومرت بفترة تكوين استمرت ثلاثة قرون أو أربعة، وضعت فيها الخطوط والمفاهيم الأساسية في كتابة التاريخ. ولكن القرون التالية شهدت إضافات هامة.

بدأت دراسة التاريخ وكتابته وتطورت كجزء أساسي من الثقافة العربية الاسلامية. وكانت وثيقة الصلة بدراسة الحديث وروايته من جهة، وباهتمامات العرب الأدبية من جهة أخرى. ولم يكن هناك إعداد خاص للمشتغلين في دراسة التاريخ وكتابته.

وهناك دوافع متعددة لكتابة التاريخ، في مقدمتها دراسة السيرة النبوية، ثم متابعة نشأة الأمة الاسلامية وتطورها، والحاجات الادارية والاجتماعية، وضرورات دراسة الحديث والفقه، وأخبار أعلام الأمة بدءاً بالصحابة والتابعين. ولا يخفى أن الأحداث الكبرى التي مرت بها الأمة، مثل الردة والفتوح ومشكلة الخلافة وظهور الأحزاب والحروب الأهلية، كان لها أثرها الواضح.

ويلاحظ أن الدراسات التاريخية نشأت وتطورت ابتداءً في مراكز المعارضة السياسية مثل العراق والحجاز، ولذا فانها تنطلق من فكرة مسؤولية الناس، وبخاصة الحكام، عن أعمالهم، هذا في حين أن السلطة (بدءاً بالأمويين) كانت تركز على فكرة الجبر لذا فان حرية الارادة والمسؤولية كانت هي الغالبة في كتابات المؤرخين الأولين، أما فكرة الجبر فانها قويت فيما بعد، حين صار الحكم مطلقا.

وهناك أفكار ومفاهيم أخرى تتمثل في كتابة التاريخ. فبعض الناس ينظر الى التاريخ في اطار المشيئة الالهية. ولا يعني ذلك بالضرورة التأكيد على القضاءوالقدر بل قد يكون العكس هو الصواب أي تأكيد مسؤولية البشر عن أعمالهم والاعتبار بالماضي للافادة في المسيرة المقبلة.

ويعرض التاريخ أحيانا على أنه تعبير عن دور الأشراف، وجهودهم. وربما كان أساسَ فكرة الشرف ابتداءً شرفُ النسب وشرفُ العمل في الاسلام. ثم شمل التعبيرُ كُلَّ من كان له دور في الحياة العامة بجوانبها المختلفة في المجتمع الاسلامي. والأشراف بهذا المعنى حملوا راية الاسلام ونظموا الدولة وكانوا عماد الثقافة.

وقد يمثل التاريخ الصراع بين الفضيلة والشر. وهذا يعطي التاريخ معنى أخلاقيا ويؤكد على أنه ينير السبيل ويعطي معنى للقيم في الأعمال والسلوك (مسكويه).

وتقدم لنا كتابة التاريخ أحيانا تفسيرا اجتماعيا وثقافيا للمسيرة التاريخية كما حاول المسعودي.

ثم جاء ابن خلدون (القرن الثامن/ الرابع عشر) ليقدم تحليلا لقيام ونمو وانحدار المجتمعات ليفضي الى وضع نموذج لقيام الدول وازدهارها وانهيارها.[٢]

أما أسلوب الكتابة أو المنهج، فقد ارتفع عن النهج القصصي بالتأثر بأسلوب رواية الحديث ونقده، ومن هنا تكون الأهمية الخاصة لمعرفة الرواة ومصادر المعلومات ولسلسلة الأسناد، دون إغفال محتوى الرواية.

يلاحظ في المنهج أن المؤرخين الأولين كانوا يذكرون مصادر رواياتهم. ومع توسع المؤلفات وتعددها في القرن الثالث صار الأخذ من مؤلف سابق يقتصر أحيانا على الاشارة الى المؤلف دون تكرار إسناده الا في حالات الضرورة.

ويبدو أن التأكيد في الكتابة كان على الراوي أو المؤرخ لا على المكتوب، نرى ذلك في الأخبار، وبصورة أدق وأشمل في رواية الحديث. وهذا من خصائص الثقافة العربية الاسلامية عامة، (اذ أن المهم هو الراوي أو المؤرخ قبل النص/ المتن). ولم يكن يذكر اسم الكتاب في فترة التكوين بل يكتفى بذكر المؤرخ (المصدر) كما هو واضح في الطبري والبلاذري مثلا.

وفي فترات تالية تأتي الاشارة للمؤلف، وفي حالات قليلة للمؤلف والكتاب[٣].

وقد يورد المؤرخ أهم مصادره التي أخذ عنها في مطلع تاريخه، وبخاصة في الفترات السابقة لعصره كما فعل ابن عذاري المراكشي[٤]، وابن الأثير في الكامل[٥]. وذهب بعض المؤرخين الى تصدير كتبهم بقائمة فيها إشارة إلى عدد من الكتب التي تعنى بمواضيع الكتاب[٦] (كما في التنوخي: الفرج بعد الشدة) وياقوت (ارشاد الأريب، معجم البلدان)[٧]وقد يبدي المؤلف رأيه في بعضها.

وقد يتوسع المؤرخ في مصادر معلوماته فيأخذ من أصناف عدة ينص عليها. فالمقريزي في خططه يبين أنه سلك ثلاثة أنحاء هي «النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من مشيخة العلم وجلة الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته»[٨]. ويبين ياقوت أنه أخذ من الكتب المؤلفة قبله ومن أفواه الرواة ومن مشاهداته الشخصية[٩]. وما دام التاريخ يؤخذ من رواة سابقين فان التأكيد على العدالة والثقة هو الأساس. ولكن الاهتمام بالأخبار المعاصرة أدى الى أن يكون للمشاهدة والعيان أهميتها في رواية الأخبار، كما يتبين في كتاب الأوراق للصولي – فانه كما قال المسعودي «ذكر غرائب لم تقع الى غيره وأشياء انفرد بها لأنه شاهدها بنفسه»[١٠]

ويثني السخاوي على الكتاب « لأن مؤلفه كان شاهد عيان لكثير من الحوادث التي يأتي على ذكرها مصنفه هذا»[11]. الا أن المؤرخين كانوا يفيدون أحيانا من الوثائق المكتوبة فأوردوا الكثير منها في مؤلفاتهم.

والتوثيق مهم في كتابة التاريخ. فهذا تاج الدين السبكي (ت ٧٧١) ينصح المؤرخين بذكر المصادر «وأن يسمي المتقول عنه». وكان المؤرخون يؤكدون على الأمانة والدقة في النقل. يبين السبكي (الابن) أنه يشترط في المؤرخ الصدق، واذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى، وان لا يكون ذلك الذي نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك»[12] كما يفترض في المؤرخ «العدالة مع الضبط»، فالمؤرخ إما أن يكون مجردا من الهوى، وهو عزيز، واما أن يكون عنده من العدل ما يغلب به هواه ويسلك طريق الانصاف»[13]. ويذكر ياقوت «انه ينسب ما نقله الى صاحبه ويحيل عليه»[14].

ويقول المقريزي في خططه، «فأما النقل من رواية العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم، فاني أعزو كل نقل الى الكتاب الذي نقلته منه لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته». أما بالنسبة للروايات عمن أدرك من المشايخ فالمقريزي يقول: «فاني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثني الّا أن لا يحتاج الى تعيينه، أو أكون قد أنسيته وقلما يتفق ذلك»[15].

وقد يضطر المؤرخ الى الكتابة من الذاكرة. والدقة هنا توجب الاشارة. فهذا الصولي يقول في ذكرياته عن الخليفة الراضي «وما حكيت من ألفاظه التي مرت وما أحكيه من كلامه بعد، فهو كما أحكيه أو شبهه أو مقارب، اذ كنت لا أقدر على أن أحفظ لفظه على حروفه، وأن أحفظ معناه»[16].

ويلاحظ أن الروايات التاريخية تدخل في باب العلم، وهذا حقل غير حقل الرأي، ولذا فقد يورد المؤرخ ما ينكر أو ما يراه ضعيفا. يبين الطبري أنه اعتمد في ذكر الوقائع على ما يروى من الأخبار والآثار مسندة الى رواتها، وان معرفة الأخبار لا تأتي عن الادراك بحجج العقول أو الاستنباط بفكر النفوس، الّا اليسير القليل، ولذا فهو يورد الأخبار كما نقلت اليه، وإن يكن فيها ما يُستنكر، فذلك بسبب الرواة[17]. ولعل ياقوت توسع أكثر في توضيح ذلك. فهو يقول: « لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول لبعدها عن العادات

المألوفة وتنافرها عن المشاهدات المعروفة .. وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرىء الى قارئها من صحتها لأني كتبتها حرصا على إحراز الفوائد... لأني نقلتها كما وجدتها، فأنا صادق في إيرادها كما أوردتها لتعرف ما قيل في ذلك حقا كان أو باطلا». ثم يبرر وجهته بقوله «أن أئمة الحفاظ الذين هم القدوة في كل زمن وعليهم الاعتماد في فرائض الشرع والسنن لم يشترط أكثرهم في مسنده ايراد الصحيح دون السقيم.. ولم يخرجهم ذلك من أن يعدوا في أهل الصدق.. إنهم أوردوا ما سمعوه كما وعوه، وانما يسمى كذابا اذا وضع حديثا أو حدث عمن لم يسمع منه أو روى عمن لم يرو عنه. فأما من روى ما سمع كما سمع فهو من الصادقين والعهدة على من رواه عنه» ثم يضيف «الّا أن يكون من أهل الاجتهاد فله أن يرويه ثم يزيغه»[١٨].

ويحاول الجاحظ أن يبين كيف يدرك العلم بغائب، ويذكر وجوها ثلاثة– فمنها سبيل العلم به الأخبار المتواترة المستفيضة في الناس، وهذه تصدّق، أو أخبار نقلها قوم، وهم «في تفاوت أحوالهم وتباعدهم» لا يمكن في مثله التواطؤ، وفي هذه الحالة يمتنع الكذب. وقد يأتي الخبر عن الرجل والرجلين مما يمكن أن يصدّق أو يكذّب، والتقدير هنا يكون «بحسن الظن بالمخبر والثقة بعدالته»[١٩].

ويركز العيني «أحد الرؤوس من المؤرخين» الحال بقوله «وأما الذي يكتب التاريخ في زماننا هذا فان كان نقله من مشاهدة وعيان وأخبار ثقات فلا بأس بذلك»[٢٠].

ولم يكن ايراد الروايات يعني التسليم بما جاء فيها، أو غياب النقد كما هو مفهوم، بل إن مقاييس النقد عديدة. ويتمثل النقد في تقدير الثقة والدقة بمصادر الروايات، وفي نقد الطريقة/ الطرق التي جاءت بها الروايات، وفي تقييم المحتوى (المتن)، وفي تفضيل رواية والشك بأخرى، وفي الانتقاء أو الأخذ بروايات وإغفال غيرها، وهذا يرد حتى حين يعطي المؤرخ عدة روايات عن الحدث الواحد.

كل هذا يعني أن المؤرخ عادة يترك للقارىء الوصول للنتائج التي يراها، مكتفيا بايراد المعلومات، ليضع القارىء في الصورة وليتجنب الاتهام بالهوى. ولكن بعض المؤرخين حاولوا تحليل الروايات وتفسير الأحداث (كما يبدو لدى سيف في أخبار الفتنة، ولدى المسعودي في مروجه ومسكويه في تجاربه والمقريزي في إغاثة الأمة).

وكثيرا ما قيل إن التاريخ العربي الاسلامي سجل الملوك والرؤساء، وأنه في خدمة السلطان، وأن الشعوب أهملت. وهذا رأي يحتاج الى إعادة نظر. وقد يكون أدق لو قلنا إن المؤرخ ابنُ عصره، وأنه يُعني بما يمثل اهتمامات العصر.

وعند النظر في أصول التاريخ العربي الاسلامي نرى أن الإخباريين، وهم المؤرخون الأولون في الكوفة والبصرة، عنوا بالأحداث التي تهم القبائل العراقية أكثر مما عنوا بشؤون الخلفاء.

أما أصحاب المغازي في المدينة فقد عنوا، إضافة الى السيرة، بشؤون الجماعة الاسلامية بالدرجة الأولى. والى جانب ذلك نجد كتب الطبقاء الأولى تعنى بالصحابة والتابعين وبرواة الحديث. (ولا ننسى – قبل ذلك – أن الكتابة التاريخية بدأت في صفوف المعارضة).

وتحوى كتب الأنساب، بما فيها أنساب الأشراف للبلاذري، إشارات الى من لهم ذكر في الحياة العامة من شاعر أو كاتب أو داع أو قاضٍ إضافة الى الأمراء والقادة.

وقد نشير الى مؤرخي القرن الثالث والقرن الرابع (فترة التكوين) لنرى من ابتعد عن كل عمل حكومي (الطبرى)، ومن كتب بعيدا عن السلطة (المسعودي)، ومن عاش في فاقة كالبلاذرى وهو رغم صلته بالخلفاء خصص جل كتابه للقبائل وللامويين، وبين من لا نعرف اسمه وكتب بما لا يرضي السلطة – مثل صاحب الامامة والسياسة ومؤلف أخبار العباس وولده.

وقد يكون أسلوب تعاملنا مع مصادرنا هذه وراء هذه الصورة. ففي الطبري والبلاذري مثلا توسع في تاريخ الأمصار أكثر من المركز، وفيهما معلومات واسعة عن القبائل ودورها في الحياة العامة، وكلاهما يتحدث باسهاب عن الثورات والحركات الاجتماعية. وفي البلاذري معلومات واسعة عن الحياة الاقتصادية، لا تكاد تبارى.

وبعد هذا يحسن أن نرى إطار التاريخ كما رسمه المعاصرون. فالتاريخ عند العرب لا يقتصر على الحوليات وعلى تاريخ الدول أو الأسر الحاكمة، ذلك أن كتب التراجم والطبقات بأصنافها هي في نظرهم كتب تاريخ. وهذا واضح عند المسعودي في مروج الذهب، اذ يقول «ولم نعرض لذكر كتب تواريخ أصحاب الحديث ومعرفة أسماء الرجال

أعصارهم وطبقاتهم.. إذ كنا قد أتينا على جميع تسمية أهل الأعصار من حملة الآثار، ونقلة السير والأخبار، وطبقات أهل العلم، من عصر الصحابة ثم من تلاهم من التابعين وأهل كل عصر على اختلاف أنواعهم وتنازعهم في آرائهم من فقهاء أهل الأمصار وغيرهم من أهل الآراء والنحل والمذاهب والجدل الى سنة ٣٣٢ في كتابنا... أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط.(٢١)

واذا كانت البدايات في التراجم تتصل بالحديث ورواته، فان حقلها اتسع كثيرا ليشمل تراجم كل فئة. أو مهنة أو علم، مثل طبقاء الصوفية، والشافعية والحنفية والحنابلة والقراء والفقهاء والكتاب والقضاة والأدباء والشعراء وغيرهم.

وجاءت تواريخ المدن لتعرف ابتداء بمن نزلها من محدثين (تاريخ واسط لبحشل) ولتتسع فتترجم لمن أقام بها من خلفاء وأمراء وعلماء وفقهاء وأدباء، وتجاوزت كتب التراجم ذلك في بعض الحالات. فمثلا توسع الصفدي في تراجمة ليشمل– اضافة الى الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والملوك والأمراء– القضاة والعمال والوزراء والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والعلماء والصلحاء وأرباب العرفان والأولياء والنحاة والأدباء والكتاب والشعراء والأطباء والحكماء والألباء والعقلاء وأصحاب النحل والبدع والآراء وأعيان كل فن اشتهر.

وتتسع كتب التراجم والأخبار لتشمل كل فئات الأمة وأصنافها. فنجد الأخبار مثلا عن «المعلمين» (الجاحظ)، وعن الأذكياء (ابن الجوزي)، بل وأخبار فئات لا تخطر ببال مثل «أخبار الحمقى والمغفلين» (ابن الجوزي) و «أخبار البرصان والعرجان» (الجاحظ). واذا كانت هذه الأخبار تتصل بفئة أو أخرى فاننا نرى شمولاً واسعا في كتاب مثل نشوار المحاضرة (أو جامع التواريخ) للتنوخي ليتناول مختلف الفئات، مثل «الأجواد والبخلاء والأشراف والظرفاء والمتكلمين والعلماء.. وأهل الآراء والأهواء، واللغويين والنحاة والشهود والقضاة.. والجواسيس والمتخبرين والوراقين والمعلمين.. والبنّاء والمزارعين، وأرباب الخراج والأرضين والأكرة والفلاحين والواعظين والقصاص وأهل الصوامع والخلوات.. والأئمة والمؤذنين، والأغبياء والمتخلفين والشطار والمتقين وقطاع الطرق والمتلصصين وأهل الجسارة والعيارين والطفيلية والمتطرحين والمغنيات والمغنين والمفكرين والموسوسين، والمشعبذين والمحتالين، والأطباء والمنجمين والكحالين

والفصادين، وأصحاب الزجر والزراقين، والمعسرين والشحاذين، وأهل المهن والصناعات.. والتجار والأغنياء. والفواضل من النساء وحرايرهن والاماء وسكان المدن والوبر والبدو والحضر»(٢٢).

ومن ناحية ثانية فان حقل التاريخ يتداخل مع حقول أخرى. ففي كتب الحديث أبواب عن المغازي مثلا، وفي كتب الأدب أخبار تاريخية واسعة كما نرى في كتاب الأغاني(٢٣). وفي بعض كتب الفقه مواد تاريخية مهمة، بل إن أغنى المصادر عن نظام الضرائب هي في كتب الفقه والخراج.

وهذا يعني أن حقل التاريخ يتجاوز أعمال المؤرخين الى أعمال الفقهاء والمحدثين وأصحاب تواريخ الأدب، وكل ما له وجهته وجهده، وهذا يجعل الكتابة التاريخية شاملة.

ولعل الاشارات إلى فوائد التاريخ تؤكد سعة نطاقه. فبعض الناس يؤكد على فائدته لأصحاب السلطة والتدبير. يقول مسكويه «وكان شرطنا في أول الكتاب ألا نثبت من الأخبار الّا ما فيه تدبير نافع في المستقبل، أو حيلة في حرب أو غيرها، ليكون معتبرا وأدبا لمن يستأنف من الأمر مثله.. ولأجل ذلك تركنا مغازي الرسول.. لأنها كلها توفيق الله.. ولا تجربة في هذا، ولا تستفاد منه حيلة ولا تدبير بشري»(٢٤).

وابن الأثير يرى فيه عبرة للملوك بالسيرة الماضية ومجال تجربة نتيجة المعرفة بالحوادث وعواقبها، خاصة «وأنه لا يحدث أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره، فيزداد عقله ويصبح لأن يقتدي به أهلا»(٢٥).

ولكن المسعودي بنظرته الحضارية يجعل التاريخ شاملا في اهتمامه وفائدته، فمنه يستخرج كل علم وحكمة وفي نطاقه تكوّن الفقه وتحرّك أصحاب القياس والمقالات، وإليه تستند المعرفة، ومنه تقتبس مكارم الأخلاق. وفيه أيضا تلتمس آداب سياسة الملك والحروب(٢٦).

ويتبين شمول التاريخ بوضوح عند السخاوي، إذ إنه عظيم الغَناء ظاهره المنفعة للانسان في «أمر معاده ودينه وسريرته في اعتقاده» من جهة، وفي «ما يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوي» من جهة أخرى. هذا إلى ما فيه من نفع في أساليب الحكم والادارة وتدبير الجيوش بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور

بأسرها». هذا إلى «ما يقع من ذكر ذوي المروءات الأجواد والمتصفين بالوفاء ومحاسن الأخلاق والمعروفين بالشجاعة والفروسية، وانه أيضا جم الفوائد كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية» (٢٧).

كل هذا يؤكد شمول التاريخ للناس كافة.

– كانت الفترة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر فترة انحطاط ثقافي ضعفت فيها الكتابة التاريخية واقتصرت على تسجيل المعلومات دون فكرة تارخية ودون منهج. وجاءت في الغالب في نطاق التراجم لبلد أو أكثر ومنها ما يقتصر على قرن، إضافة الى تواريخ أسر محلية. وان وجد تاريخ عام فهو يعطي خلاصات من مصادر سابقة. ولكن بعض التواريخ المحلية تعطي معلومات مفيدة عن فترة مؤلفيها. وتتبع هذه المؤلفات عادة طريقة السرد وتقل فيها الاشارة الى المصادر.

ومع بدايات التنبه الحديث تجدد الاهتمام بالكتابة التاريخية، وبعد الاتصال بالثقافة الغربية صار للآراء والمناهج الغربية وبالتدريج أثر على كتابة التاريخ. كما تعرف الكتاب على التراث التاريخي العربي بصورة أفضل وأشمل وبدأت كتابة التاريخ الحديثة بالظهور.

ويمكن على العموم ملاحظة اتجاهين في كتابة التاريخ. اتجاه يتأثر بالدرجة الأولى بتراث الكتابة التاريخية، دون أن يوازيها (في المنهج والفكرة).

واتجاه أقرب للتأثر بالمناهج والمفاهيم الحديثة. ويتداخل الاتجاهان نتيجة تعرض الكتاب في التاريخ بدرجات متفاوتة لتأثير التطورات الثقافية.

لقد كان القرن الأخير هو الفترة التي بدأت فيها الكتابة الحديثة في التاريخ لتتخذ بعدئذ اتجاهاتها الحالية. ومع ذلك فان الكتابة وفق الأساليب الموروثة والكتابة الحديثة لا تزال تُرى في الكتابة التاريخية.

ويلاحظ أن الكتابة التاريخية حتى الثلاثينات من هذا القرن كانت في الغالب لكتاب لم يتدربوا في التاريخ، من محامين وصحفيين وعسكريين وأدباء وفقهاء. وفي نتاج البعض إغناء للكتابة التاريخية.

ويمكن القول إن كتابة التاريخ بأساليب ومناهج حديثة إنما اتضحت بعد العقود الأولى من هذا القرن.

– والتاريخ عند العرب موضوع حيٌّ، فهو يشكل جانبا هاما من ثقافتهم العامة، بمفهومها الواسع، وهو وثيق الصلة ببعض مفاهيمهم واعتقاداتهم. لذا فنظرة العرب الى تاريخهم مهمة لفهم الكتابة التاريخية الحديثة، وهي نظرة تكونت عبر القرون.

ان بعض الفترات والأحداث والمواقف لا تزال حية بيننا، وللناس مفاهيم ومشاعر قوية عن تاريخنا، وهم يعيشون بعض أحداثه وكأنها وقعت أمس.

كل هذه لها أثرها في توجههم وفي نواحي اهتمامهم وفي مواقفهم من بعض مشاكلهم المعاصرة وفي أسلوب معالجة التاريخ.

هذا الوضع يمكن أن يزيد من الاهتمام بالتاريخ، ولكنه قد يوجد عقبات أمام البحث التاريخي الجاد، وقد يؤدي الى عدم تناول فترات أو موضوعات لها أهميتها وأثرها. وهذا قد يختلف من بلد عربي الى آخر ومن فترة الى أخرى حسب الأوضاع الثقافية والاجتماعية.

وكانت عناصر الحيوية والحركة لدى العرب في التاريخ تتمثل في الاسلام وفي نطاق العربية، وكلاهما ينظر الى التاريخ. وهذا واضح في مواجهة التحديات الخارجية والداخلية.

فتجديد اهتمامنا بالتراث والتاريخ كان وثيق الصلة بالنهضة الحديثة منذ البدايات في القرن التاسع عشر إلى الآن. وكانت مشكلة التخلف وخطر التوسع الغربي سياسيا وثقافيا عوامل أساسية دفعت للرجوع الى التاريخ.

حاول بعضهم دراسة التاريخ العربي ابتداء كسبيل لتكوين الثقة بالنفس وللحفاظ على الهوية، ولانماء الحس الوطني والعربي، ولبناء النهضة. وهذا قاد الى الاهتمام بالفترات اللامعة من التاريخ الاسلامي وبالحضارة العربية الاسلامية.

ورأى آخرون أن دراسة الماضي لازمة لفهم الحاضر، وأن جذور الأوضاع القائمة هي في الماضي، وبالتالي فان دراسة التاريخ ضرورية لفهم المشاكل القائمة ولمعالجتها وللاعداد لمستقبل أفضل. ولعل هذا وراء كتابات في التاريخ تحاول إظهار التطورات الهامة، أو دراسة فترات انحطاط كانت تهمل من قبل.

وأدّت الحفريات وحل رموز الكتابات في العصور القديمة إلى إثارة الاهتمام

بالحضارات التي قامت في البلاد العربية في القديم والى تنقيبات ودراسات آثارية. وتجاوز الاهتمام بتاريخ العرب القديم ما يدعى بالجاهلية (حوالي قرنين قبل الاسلام) الى مختلف الفترات والدول العربية قبل الاسلام. وكان للاتجاهات الاسلامية والقومية والوطنية إضافة الى تيارات سياسية اجتماعية أخرى أثرها في كتابة التاريخ.

واذا كان بعض المؤلفات لا ينطوي على فكرة تاريخية، فان الكثير منها تتخلله فكرة أو أخرى، فالفكرة الاسلامية، والفكرة العربية/ القومية والفكرة الوطنية، تتمثل في كثير من الكتابات، وهي في توسع، كما نرى أفكارا أخرى في هذه الكتابات.

تركز الكتابة في الاتجاه الاسلامي على أن تاريخنا هو تاريخ الأمة الاسلامية، وترى في تاريخ الاسلام محور التاريخ. والتاريخ هنا تعبير عن المشيئة الإلهية. يقول أحدهم «إن أية حركة تاريخية إنما هي نتاج لقاء خلاق بين الله والانسان والطبيعة بما فيها الزمن، وإغفال أي عنصر منها إنما هو جهل بالأسس الحقيقية لحركات التاريخ»[٢٨]. ويرى أن «الرؤية القرآنية تحيط بالماضي لكي تكتفه في قواعد وسنن تطرح أمام كل باحث في التاريخ يسعى إلى فهمه والى أن يرسم على ضوء هذا المنهج طرائق حياته الحاضرة والمستقبلة[٢٩].

ويرى مفكر آخر أن التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث. ولكي يفهم الانسان الحادثة ويفسرها ويربطها بما قبلها وبعدها فينبغي أن يكون لديه الاستعداد لادراك مقومات النفس البشرية، روحية وفكرية وحيوية، ومقومات الحياة البشرية معنوية ومادية. (ولذا فهو يرى أن بحوث الغربيين عن الموضوعات الاسلامية– في أحسن الحالات– ناقصة لأنها ينقصها عنصر الروحية الغيبية).

ولذا فهو يرى أن العقلية التي تحكم على الحياة الاسلامية ينبغي أن تكون في صميمها إسلامية مشربة بالروح الاسلامية.

ويتدرج من هذا الى أنه يصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الاسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الاسلامية، ولطبيعة فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة.

وبالتالي فان المؤرخ يستطيع أن يزن دوافع الحياة الاسلامية في فترة تاريخية وأسباب

النصر والهزيمة فيها على ضوء ادراكه لطبيعة العقيدة الاسلامية واستجابة المسلمين لها.[٣٠]

ولا يميز بعض الباحثين في هذا الاتجاه بين التاريخ والعقيدة، بل يرى أن غاية كتابة التاريخ ووجهته مرتبطة بغاية العقيدة الاسلامية، ولا بد للمؤرخ أن يربط عمله التاريخي بعقيدته ومنهجه[٣١]. ويرجع صاحب هذا الرأي إلى قواعد علم الحديث في المنهج، ويقر بأن المرونة في تطبيق قواعد الجرح والتعديل واردة[٣٢] ولكنه لا يكتفي بذلك ويضع شروطا أخرى. فمن لوازم المنهج عنده أن «يكون المشتغل بعلم التاريخ الاسلامي وتفسير أحداثه ذا تصور سليم وعقيدة صحيحة ودراية بعلوم الشريعة وفقهها، إضافة الى تخصصه التاريخ»[٣٣].

وتتخلل بعض الكتابات في الاتجاه العربي فكرة الأمة، أي الأمة العربية، وتحاول التعرف على مسيرتها ومنجزاتها في التاريخ. فالتاريخ في رأي بعض الباحثين هو الذاكرة المشتركة للأمة (تجاربها، أعمالها،أبطالها، منجزاتها) وهو قاعدة لشعورها المشترك وخزان تستمد منه لتعطي لنفسها معنى، ولناشئتها العزة والانتماء والولاء.

ومن المتفق عليه– كما قيل– أن التاريخ العربي أساس تأكيد الهوية، فهو يثير الحس الوطني / القومي في وجه الأخطار القائمة أو المنتظرة وهو عون للاتجاه الى الوحدة وهو مصدر إيمان بالأمة، وكان التاريخ عاملا واضحا في الكفاح من أجل التحرر كما كان عنصرا في البناء الوطني / القومي[٣٤].

ويلاحظ البعض أن فترات الأزمات أو الخطر في حياة الأمة– مثل الغزو الخارجي والتجزئة والغزو الاستيطاني– تدعو الى العودة للتاريخ للبحث عن الذات بروح نقدية، أو أنها تحفز الى إعادة النظر في دراسة التاريخ وكتابته. وقد يذهب بعضهم الى أن المراد ليس إعادة كتابة التاريخ بل أن ينظر اليه برؤية جديدة، أو قراءة جديدة لتاريخ الأمة[٣٥].

ويرى الكتاب في الاتجاه العربي أن الغرض الأول لدراسة التاريخ هو فهم الحاضر. ولكنه لا يقف عند ذلك، فالتاريخ أهم مقومات الشخصية، والفهم الصحيح للتاريخ هو طريق الحل وهو يعين على بناء الأمة[٣٦]. ويرى آخرون أن دراسة تاريخ الأمة لا تقف عند فهم الحاضر بل تساعد على بيان الاتجاه المقبل، وهذه وظيفة من وظائف التاريخ[٣٧].

ان أصحاب الاتجاهين (العربي والاسلامي) ينظرون الى مشاكل الحاضر ويفكرون بمستقبل أفضل، ويرون في دراسة التاريخ العربي / الاسلامي ما يساعد على ذلك. وبين أصحاب الاتجاهين من يؤكد على الدراسة الموضوعية الجادة للتاريخ[٣٨].

وللاتجاهات الوطنية والاقليمية أثرها في كتابة التاريخ. فالتجزئة التي تلت الحرب العالمية الأولى وظهور كيانات عربية جديدة لها الأثر الكبير في المحاولات المتزايدة لاعطاء القطر هوية تاريخية خاصة، تأكيدا لوجوده المستقل واضفاء لشرعية تاريخية على كيانه. وقد يظهر الاتجاه الوطني في إطار عربي فتتخلله نظرة عربية، فيبرز دور القطر في التاريخ العربي. وهنا يوضح أن القطر له خصائصه الأصيلة وله هويته العريقة التي حافظ عليها عبر العصور، فهو مركز عريق للحضارة، وهو عربي منذ القدم وقد حافظ على عروبته، واعتنق الاسلام فأغنى مفكروه وعلماؤه الاسلام والعروبة ولذا وجب إبراز مكانته ودوره في التاريخ.

وقد تكون الطائفية، مثل الاقليمية وراء الكثير من المحاولات لتبرير إقامة كيان ما ولاعطائه قاعدة تاريخية.

وقد يوسع الاطار في الاتجاه الاقليمي أو الطائفي للحديث عن أمة بدل شعب (الأمة اللبنانية مثلا) وعن قومية بدل وطنية، وقد يمر الانتماء (الحضاري، اللغوي، القومي) عبر الانتماء الطائفي، وقد تصبح الطائفة لا الوطن والأرض الطائفية لا الأرض الوطنية هي النواة[٣٩].

ثم إن الاقليمية والوطنية المحدودة أثرت في دراسة التاريخ العربي بالتركيز على الأحداث والتطورات في بلد ما على حساب الاتجاهات والتطورات العامة.

وقد انتقد البعض هذه الكتابات التي تعزل تاريخ قطر عن نطاقه العربي ولا تُظهر الاتجاهات والعلاقات العربية، ويرون أن إغفال الخطوط والتطورات العامة في البلاد العربية يؤدي الى بعض الاضطراب والى تقسيمات مصطنعة[٤٠].

ويبدو أثر الماركسية في كتابات في التاريخ العربي وهي -على قلتها- تتعلق بحركات اجتماعية أو بالتاريخ الاقتصادي[٤١]، وعلى الأكثر في مجال التاريخ الفكري والتراث[٤٢]. ويجد

أصحاب هذه الكتابات في الماديّة التاريخية ابتداء أو في نمط الانتاج الآسيوي أخيرا الوجهة وبالتالي المنهج. ويلاحظ هنا أن الكتابة تبدأ بنظرةٍ مسبقة تحاول إثباتها في التاريخ، وتدين بفكرة الحتمية التاريخية. هذا إضافة الى اتخاذ بعضهم مصطلحات وقيماً من التاريخ الغربي وتطبيقها على التاريخ الاسلامي(٤٣).

– وحصلت تطورات في أطر كتابة التاريخ العربي والاسلامي. فهناك تواريخ عامة، على الأسر أو الفترات التاريخية، في تاريخ العرب قبل الاسلام أو تاريخ العرب في الاسلام أو كليهما. وقد تضيف الى التاريخ السياسي شيئا عن الحضارة. واختفت كتابة التاريخ على السنين.

والجديد هنا أن الفترات التي وقع فيها غزو الافرنج– أو الحروب الصليبية– صارت تعتبر عصرا أو فترة تاريخية، ولم تكن كذلك في مصادرنا، بل كانت تأتي في مكانها من الأحداث. وهكذا نجد كتابات عامة عنها، أو دراسة لحملة أو جانب منها. هذا الاتجاه مهدت له الكتابات الغربية وأثاره الغزو الغربي للبلاد العربية، وأخيرا اقامة اسرائيل. ونظر البعض الى المواجهة آنئذ كجهاد أو حرب تحرير. ولكن يلاحظ أن جل هذه الدراسات لم تتعمق في دراسة مصادرنا بدقة وتوسع، ولم تولي الآراء التي تعطيها عن هذه الحروب ما تستحق من عناية.

وكتبت دراسات عن الأسر الحاكمة لدورها الكبير في تاريخ العرب (الأمويون، العباسيون) أو لأهميتها في تاريخ قطر (طولونيون، أغالبة، مماليك).

ووضعت دراسات عن شخصيات بارزة في السياسية أو الفقه أو الادارة أو الأدب، وهذا في اتجاه كتب التراجم والسير، ولكن يغلب على كثير منها اتجاه جديد في تناول بيئة الشخص والتطورات في عصره أو دوره في عصره.

واستمرت التواريخ المحلية بالمفهوم التراثي حتى القرن العشرين. وبعد الحرب العالمية الأولى اتجهت الكتابة التاريخية عن الفترة الحديثة الى تناول الأقطار العربية مفردة، باستثناء دراسات عامة قليلة.

واتصلت كتابة التاريخ عن المدن بالأسلوب الموروث (طوبوغرافية مع تراجم). ولكن الدراسات الحديثة اتجهت الى تطور المدينة، وربما الى حياة المدينة (ثقافية،

اقتصادية، اجتماعية) إضافة الى النشأة والطوبوغرافية. واعتمدت الكتابات هنا على المصادر التاريخية والجغرافية وحدها، أو على الآثار. وكتب العرب في موضوعات أخرى غير التاريخ العربي والاسلامي، مثل التاريخ الأوروبي، والتاريخ الروماني والبيزنطي، وكذا عن بعض البلاد الآسيوية والإفريقية، وهذه حقول ترتبط بأثر الثقافة الحديثة. ففي الماضي كتب العرب عن تاريخ الشعوب الأخرى وثقافتهم قبل الاسلام. نعم توجد استثناءات قليلة للكتابة عن شعوب معاصرة مثل ما كتبه البيروني عن الهند والمسعودي عن بيزنطة، ولكن هذه استثناءات تؤكد الخط العام.

مع ذلك يبقى ما ألف في هذه المجالات محدودا. ولا يمكن الحديث عن منهج عربي لكتابة التاريخ الأوروبي أو غيره.

وبعد هذا يمكن الاشارة الى كتابة المذكرات، ويمكن اعتبارها نهجا حديثا في الكتابة التاريخية، وان وجد لها أثر في التراث.

يتضح إذن أن كتابة التاريخ عند العرب تتجه أساسا الى تاريخ العرب والاسلام في الماضي والحاضر.

واتجهت الكتابة التاريخية في العقود الأخيرة الى دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي. فقد وضعت دراسات عن الحياة الاقتصادية أو جانب منها لفترة أو لقطر، كما وضعت دراسات عن موضوعات اقتصادية معينة كالضرائب وملكية الأراضي والتجارة وظهور الاقطاع والنقد. كما درس بعضهم الحياة الاجتماعية/ الاقتصادية لبعض المدن. إن أهمية النواحي الاقتصادية والمالية بذاتها أو في تفسير بعض التطورات توضح الاهتمام بهذا الجانب.

وتشكل الحركات الاجتماعية محور بعض الدراسات، فهي لم تعد تنسب لقابليات قيادات فردية بل درست في ضوء التطورات الاجتماعية الاقتصادية. وهكذا ألقيت أضواء جديدة على حركة الاسماعيلية والقرامطة وعلى الدعوة العباسية وعلى حركات الفتوة. وهذا الخط من الدراسة يتصل بنظرة تزداد قوة وهي أن دور الشعوب في التاريخ يجب أن يعطى حقه من العناية إلى جانب دور الأمراء والخلفاء.

بعد هذا يلاحظ قلة عدد الذين حاولوا أن يتناولوا التاريخ العربي الاسلامي بنظرة شاملة

أو متكاملة في دراسة فترة أو فترات من التاريخ العربي ليروا التيارات والاتجاهات الرئيسية وراء الحوادث والتطورات، أو ليبرزوا تفاعل الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية. ومثل هذا النهج في الدراسة يعطي صورة كلية للتاريخ.

ومن جهة أخرى لم يقدم المؤرخون العرب مفهوما شاملا أو نظرة كلية لتاريخهم ولم يتواصلوا الى تكوين فلسفة أو فكرة تاريخية لهذا التاريخ. وهنا يرد السؤال- هل تتكون مثل هذه الفكرة أو النظرة من دراسة التاريخ ذاته أو من نظرية أو فكرة خارجية؟- قد تختلف الاجتهادات هنا، ولكنها لا تختلف في أن هذه الثغرة من أسباب الدعوة الى (إعادة) كتابة التاريخ العربي.

وهناك نقطة أخرى تتصل بهذه ولها أهميتها- ذلك أنه لا توجد خطوط لتقسيم التاريخ العربي الاسلامي الى فترات واضحة المعالم. هل نأخذ بالتقسيم الى تاريخ قديم ينتهي بسقوط روما ووسيط ينتهي بالاكتشافات الجغرافية، ثم حديث بعدها... الخ، أي بتقسيمات التاريخ الأوروبي كما هو الشائع في الفترة الحديثة، أم ننظر الى طبيعة هذاالتاريخ ونحاول أن نرسم الخطط في ضوئها، فنشير الى ظهور الاسلام نهاية للعصور القديمة مثلا والى دخول البلاد العربية في إطار الدولة العثمانية كمؤشر، والغزو الغربي الحديث نهاية مرحلة وهكذا.. ثم نتبعها بخطوط فرعية؟ وعلى أي أساس نرسم الخطوط- هل هي الأحداث السياسية الكبرى، أو التحولات البشرية والاقتصادية، أو غير ذلك؟ قد أكون ممن يرون اتخاذ مؤشرات أكثر دواما ودلالة من التغييرات السياسية مثل العوامل البشرية والتحولات الاقتصادية والتطور الاجتماعي.

وبعد هذا يلاحظ أن التاريخ الاسلامي يدرس معزولا عن التاريخ العالمي، وقد يدعو بعضهم- لأسباب مفهومة- الى بيان أثر الحضارة الاسلامية في الحضارة الغربية الحديثة. والمفروض إذا أردنا أن نعرف موقع التاريخ الاسلامي في تاريخ البشرية ودوره في الحضارة الانسانية ومنزلته أن ندرس الأوضاع الدولية والحضارية التي سبقت قيام الاسلام والأوضاع والظروف الموازية في تاريخ البشرية- لفترات التاريخ الاسلامي.

- ان النظرة الى المصادر لا تزال مشكلة في الفترة الحديثة. ذلك أن جل الكتاب في التاريخ يقصرون مصادرهم على كتب التاريخ في إطار الحوليات وتواريخ الدول ويضاف إليها كتب التراجم والسير أحيانا. هذه نظرة محدودة تتطلب اتجاها أرحب وأكثر تفهّماً

لكتب التراث، وتقديرا أشمل للمصادر الرئيسية لدراسة التاريخ. فاذا تذكرنا، أن الكتابة في موضوعات تاريخية لم تقتصر على من نسميهم المؤرخين بل شارك فيها الأدباء والمحدثون والفقهاء واللغويون والنسابون، أدركنا أن مختلف جوانب التراث تهمنا، وان كتب الفقه وكتب الفتاوى، وكتب الجغرافية، والرحلات والأنساب ودواوين الشعر والكتب الفنية والمهنية وكتب الأدب عامة هي مصادر هامة– وهي بين إغفال كلي وبين إفادة محدودة من قبل الباحثين.

وعند الحديث عن المصادر التاريخية تجدر ملاحظة ناحية مهمة هي أن جل هذه المصادر لم تُحَقَّقْ، وهذا يقلل من قيمتها وقد يربك البحث. والحاجة هنا ملحة إلى أن يركز الاهتمام على التحقيق والنشر، وأن تلتفت دوائر التاريخ الى إعداد من يقوم بذلك.

ولا بد أن نؤكد هنا على أهمية الاستناد الى المصادر الأولية في البحث التاريخي والى الاحاطة بها، والى مقارنة الروايات ونقدها وتقييمها، وأن لا يكون الأسلوب انتقائيا أو تلخيصيا سرديا.

ومن ناحية ثانية فان منهج البحث يتطلب فهم المصادر وتقييمها. وهذا يدعو الى دراسات عن الكتابة التاريخية عند العرب أو تأريخ التاريخ ليمكن التعامل معها والافادة التحليلية من رواياتها. وقد ترجمت بعض الكتب والمقالات ابتداء على قلتها. ثم وضعت بعض الدراسات في العربية، بين دراسات عن علم التاريخ عند العرب عامة وبين دراسات عن مؤرخي قطر أو بلد أو عن مؤرخ بعينه. ويمكن هنا الاشارة الى السخاوى– الاعلان بالتوبيخ– بين كتب التراث. ولكن هذا المنهج في الدراسات الحديثة جديد تماما، ولم يستقر هذا الحقل من الدراسة بعد.

وفي خلال العقدين الأخيرين وجه الاهتمام الى الوثائق كمصدر للكتابة التاريخية. لقد ظهر اهتمام متزايد باستعمال وثائق المحاكم الشرعية، وكان مجزيا في التاريخ الاجتماعي / الاقتصادي والثقافي. وذهب بعض الناس الى الافادة من وثائق الوقف. وهناك الوثائق الحكومية. فالوثائق المصرية من عصر محمد علي درست في فترة سابقة. ويمكن الاشارة الى الوثائق التونسية والمغربية ووثائق أخرى أفاد منها بعض الباحثين. ورجع بعض الباحثين (خاصة في الرسائل الجامعية) الى الوثائق الغربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين مما له علاقة بتاريخ البلاد العربية.

ولكن الوثائق العثمانية، على أهميتها الكبيرة، لم يفد منها الا قليلا في بعض الأبحاث الجامعية، وذلك بسبب لغتها ابتداء.

وتبقى المواد الآثارية، على أهميتها الكبيرة في الدراسة التاريخية، قليلة الأثر في الكتابة التاريخية. ويمكن ايراد أمثلة واضحة لجوانب منها لها أهمية كبيرة مثل النقود، والنسيج والطراز، وخطط المدن (وهذه اكثر فائدة منها بدرجة محدودة) والكتابات والنقوش على الأحجار والأبنية، وتخطيط الدور.

ويتصل بالفكرة والمنهج النظرة الى صلة التاريخ بالحاضر، وهنا تلاحظ اتجاهات ثلاثة:

الأول—ويرى أصحابه ضرورة تجاوز التاريخ، وأن لا جدوى من العودة للتراث وأن المجتمع يجب أن يقوم على أسس حديثة مأخوذة من أنظمة جديدة في العالم الحديث (الاشتراكية، الليبرالية، الماركسية).

الثاني—وهناك فئات ترى أن النهضة والقوة يمكن الوصول اليهما بالعودة الى التاريخ والتراث.

الثالث—تمثله فئة تسعى الى شيء من التوازن بين الأصالة والمعاصرة. وهي ترى أن التقدم يمكن أن يحصل بالاستناد الى التراث بعد أن تنفث فيه حياة جديدة، مع الافادة من منجزات الحاضر ليمكن مواجهة مشاكل المجتمع[٤٥].

وفي خلال العقدين الأخيرين تقلصت المجموعة الأولى، وتوسعت الثانية، بينما تجد الثالثة نفسها في وضع قلق وغير واضح.

وتدور المناقشة حول نقطة محورية— هل التاريخ بتأثيره الكبير على الناس عون لحركة التقدم وحافز عليه أمْ أنه عبء وعائق للحركة؟— يرى البعض بأن الإعراض عن التاريخ لا يساعد على التخلص من آثاره السلبية، فما دمنا نحمله في اللاشعور دون تمييز وتقييم فاننا نبقى نجر قيودا عديدة من مفاهيم تثقل ورواسب تعطل. وفي التاريخ بمفهومه العلمي الصحيح علاج لهذه الأدواء لأنه يلعب بالنسبة لنفسيات الأمم والجماعات الدور الذي يلعبه التحليل النفسي للأفراد.

تأثرت دراسة التاريخ في الماضي في الفكرة والأسلوب بحقول أخرى للثقافة (مثل

دراسة الحديث والدراسات الأدبية) . وكان للتاريخ بدوره أثره في عدة من حقول المعرفة .

ومع أن بعض المؤرخين حاولوا تمييزه كعلم بذاته (مثل المسعودي ومسكويه وابن خلدون) فانه بقي في الغالب متداخلا مع فروع أخرى من الثقافة . ولعل اشتراك غيره من الدراسات معه في مادته ، ومفهوم الأدب ، إضافة الى أثر العلوم الاسلامية ، مسؤولة عن ذلك .

وكان الاتجاه العام في الفترة الحديثة الى اعتبار التاريخ فرعا بذاته ، وفي العادة معزولا عن حقول المعرفة الأخرى . ولكن هل بامكان المؤرخين أن يبعدوا عن العلوم الاجتماعية الأخرى ؟ وهل يستطيع المؤرخون اغفال الدراسات التراثية التي يقوم بها مختصون بالاقتصاد والتربية والاجتماع .. ومناهج بحثهم فيها ؟ واذا كان المؤرخون يدرسون التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والفكري فهل يستطيعون ذلك دون صلة بالعلوم الأخرى وتعرف على مناهجها في البحث ؟ هذا الى أن النقد يوجه الآن الى أولئك الذين يكتبون التاريخ ويهملون حقولا وثيقة الصلة تراثيا به مثل الأدب العربي والجغرافية .

وهناك مشكلة أخرى في المنهج . وهي أن كتابة التاريخ العربي / الاسلامي الآن تأتي في مجالات مختلفة . فهناك من يدرسه في مجال الدراسات الدينية وقد يراه متصلا بالعقيدة ، وهناك من يدرسه في نطاق الأدب ، هذا إضافة الى من يدرسه في مجال الدراسات التاريخية وفق منهج أو بدونه ، ولكل من هذه الجهات الثلاثة أسلوبه ووجهته .

وهذا يسبب الكثير من البلبلة ويؤدي الى اضطراب في المنهج ان لم يكن غيابه أحيانا .

وبعد هذا تجدر الاشارة الى نقطة أخيرة في المنهج هي أن مناهج البحث في التاريخ الغربي يمكن أن تغني أسلوب البحث في التاريخ العربي ولكن تبقى نقطة أساسية هي أننا بحاجة الى أن نفهم طبيعة مصادرنا التاريخية وأن نقوّم رواياتها ومصادرها ، وهذا يتطلب منا أن نطور هذا الجانب الحيوي في المنهج وأن نعطيه أهمية في دراسة التاريخ .

لقد آن لنا أن نوضح المنهج التاريخي في البحث وأن نركزه في الكتابة وأن نعممه لنستطيع وضع تاريخ موضوعي منفتح على فروع المعرفة الأخرى ولكنه مستقل بذاته وبمنهجه .

١ – المسعودي – مروج الذهب. تحقيق باربييه دمينار وبافيه دكورتي ٩ج باريس ١٨٦١ – ١٨٧٧، وطبع بالاوفست طهران ١٩٧٠ ج ٣، ص ١٣٥ – ١٣٦

٢ – انظر:

– فرانز روزنتال – علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي ط٢ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣.

- Gibb, H.A.R.-Tarikh. E.I. Supplement, Leiden 1938

– شاكر مصطفى – التاريخ العربي والمؤرخون ٢ ج، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨ – ١٩٧٩؛ يوسف هوروفتس – المغازي الأولى ومؤلفوها، تعريب حسين نصار، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٤٩؛ الدوري، ع – بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت ١٩٦٠.

- Mahdi,M.-Ibn Khaldun', Philosophy of History. London, G. Allen and Unwin 1957

- Khalidi, T.-Islamic Historiography, The Histories of Masudi, State University of New York Press, Albany 1975.

٣ – سبط ابن الجوزي – مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ج١ تحقيق احسان عباس دار الشروق بيروت ١٩٨٥ ص ٥٢٩، ص ٥٣٦

٤ – ابن عذاري المراكشي – المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ج١ تحقيق ج. س كولان وأ. ليفي بروفنسال، ط٢ دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠، ص٢

٦ – التنوخي، القاضي أبو علي المحسن بن علي، كتاب الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي ٥ أجزاء، دار صادر بيروت ١٩٧٥ – ١٩٧٨، ج١ ص ٥٢ – ٥٤.

٧ – استعرض المسعودي عددا من كتب التاريخ والاخبار وابدى رأيه في بعضها، مروج الذهب ج١ ص ١٠ – ٢١.

٨ – المقريزي – كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ٢ج بولاق ١٢٧٠، مكتبة المثنى بالاوفست ١ / ٤

٩ – ياقوت الحموي – معجم البلدان، ٥ج دار صادر بيروت ١٩٧٩ – ١٩٨٤، ١ / ١١ – ١٢

١٠- المسعودي- مروج الذهب، ١/١٦-١٧

وانظر: الصولي- أخبار الراضي والمتقي لله، تحقيق ج. هيورث دن، القاهرة ١٩٣٥، ص ١٨

١١- روزنتال، فرانز- علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣، ص ٥٥١.

١٢- قاعدة في الجرح والتعديل، وقاعدة في المؤرخين، للامام تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين علي السبكي، حققه عبد الفتاح أبو غدة ط ٢، دار الوعي حلب ١٩٧٨ ص ٧١- ٧٢

انظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك كتاب الوافي بالوفيات جـ١، باعتناء هلموت ريتر، بيروت ١٩٨١ (النشريات الاسلامية ٦/١)، ص ٤٦؛ روزنتال ص ٥٠٠ ويقول السخاوي: «وأما شرط المعتنى به فالعدالة مع الضبط التام الناشىء عن مزيد الاتقان والتحري». روزنتال ص ٤٨٢.

١٣- الصفدي- كتاب الوافي بالوفيات ج١ ص ٤٦

١٤- ياقوت- معجم البلدان، جـ ١

ص ١١- ١٢ وفي معجم الادباء، نشر أحمد فريد الرفاعي، مكتبة البابي الحلبي، الطبعة الاخيرة، ٢٠ ج، القاهرة ١٩٣٦- ١٩٣٨، ج١ ص ٤٩ يقول ياقوت «أثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعمول عليهم في هذا الشأن والمرجوع في صحة النقل اليهم».

١٥- المقريزي- الخطط ج١ ص ٤

١٦- الصولي- أخبار الراضي والمتقي لله ص ١٨

١٧- الطبري- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر ج١ (١٩٦٠) ص ٧-٨.

١٨- ياقوت- معجم البلدان، ج ١ ص ١٢- ١٣.

١٩- الجاحظ- رسائل، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الجزء الاول، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٤، رسالة المعاش والمعاد، ص ١١٩- ١٢٠.

٢٠- روزنتال- علم التاريخ، ص ٤٦٦- ٤٦٧.

٢١- المسعودي- مروج الذهب، ج١ ص ١-٧.

٢٢- التنوخي- نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، ٨ج، دار صادر بيروت، ١٩٧١ - ١٩٧٣، ص ١-٧.

٢٣- يقول أبو الفرج الاصفهاني- في الاغاني ج ١، دار الثقافة بيروت ١٣٧٤/ ١٩٥٥:

«إن القارىء اذا تأمل ما فيه من الفقر ونحوها لم يزل متنقلا بها من فائدة الى مثلها ومتصرفا فيها بين جد وهزل وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بايام العرب المشهورة واخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام». ج١ ص ١٤.

٢٤- مسكويه- تجارب الامم، ج١، باعتناء دي خوية، لندن ١٩٠٩، ص ٣٠

٢٥- ابن الاثير- الكامل في التاريخ ج١، ص ٧

٢٦- المسعودي- مروج الذهب، ج٣ ص ١٣٥ - ١٣٦.

٢٧- السخاوي- الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، في روزنتال- علم التاريخ ص ٤٠٠ - ٤٠١.

٢٨- عماد الدين خليل- التفسير الاسلامي للتاريخ ط٢، بغداد ١٩٧٨ ص ٦٦.

٢٩- نفس المرجع ص ١٤.

٣١- محمد بن صامل العلياني السلمي- منهج كتابة التاريخ الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري. (رسالة ماجستير، جامعة أم القرى ١٩٨٤) ص ١٥٠.

٣٢- نفس المرجع ص ٧٨، ص ١٢٢ - ١٢٣.

٣٣- نفس المرجع ص ٧٣.

٣٤- انظر قسطنطين زريق- نحن والتاريخ ط ٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩، اذ يقول «لقد كان تنبهنا لتاريخنا من اعظم العوامل في نهضتنا الحديثة منذ بزوغ فجرها في القرن الماضي» ص ١٧، ويقول «اننا نعود للماضي من خلال اهتمامات الحاضر وآمال المستقبل ص ١٦١، وانظر ص ٢٠١.

٣٥- انظر المستقبل العربي ١٩٧٩/٥ ندوة «نحو رؤية جديدة لتاريخ العرب الحديث» ص ١٨٨-١٨٩ وص ١٦٩-١٧٠، وانظر زريق ص ١٨-١٩، ص ٢٩ وما بعدها وص ٢٢ وما بعدها.

قوانين الانتاج وقوانين تطور القوة المنتجة وعلاقات الانتاج». تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤ – ١٩٥٦، بيروت ١٩٧٤ ص ١٣

٤٤– انظر، جورج حداد– مؤلفات المؤرخين العرب في غير التاريخ العربي، في كتاب: ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة سنة الاخيرة، في دراسة التاريخ العربي وغيره، الجامعة الامريكية بيروت ١٩٥٩، ص ١–٢٤.

٢٥– انظر كتاب المؤتمر الثقافي العربي الثالث (١٨– ٢٨ نوفمبر ١٩٥٧) القاهرة ١٩٥٨ ص ١٣٤

٤٦– محمد الطالبي – التاريخ ومشاكل اليوم والغد ص ٣٨

ختام الموسم

نـــدوة
دور وسائل الاعلام في اشاعة اللغـــة العربيَة الفصيحَة

أدارها
الاستاذ الدكتور محمود ابراهيم / عضو المجمع
وشارك فيها
الاستاذ: محمود الشريف. والاستاذ أحمد العناني
السبت ٢٠ شعبان ١٤٠٧هـ / ١٨ نيسان ١٩٨٧م

كلمة

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم
عضو مجمع اللغة العربية الأردني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة:

في زمن مضى، كانت اللغة السليمة تكتسب اكتسابا من البيت الذي يعيش فيه الانسان العربي، أو من مجتمع هذا الانسان، والبيئة الكبيرة التي كان يعيش فيها. ثم انقضى هذا الزمن، ولم يعد البيت العربي ولا المجتمع العربي الكبير بقادر أو بقادريْن على أن يكسبا الانسان العربي اللغة العربية السليمة. ولذا فقد انتقل الامر من اكتساب طبيعي تلقائي للغة العربية السليمة، الى تعلُّم لهذه اللغة عن طريق المؤسسات الثقافية، بدءاً بالكُتّاب ومرورا بالمدرسة، وانتهاء بالجامعة.

وبمرور الزمن، أصبح لدينا من المؤسسات الأخرى ما له دور كبير جدا في إشاعة اللغة العربية الفصيحة، أو لا سمح الله، في تشويه اللغة العربية الفصيحة: إنها مؤسسات الاعلام الذي وصل الى ما يمكن أن نسميه ثورة الاتصالات في عالمنا الحديث. والحديث عن الاعلام وأجهزته القوية ذات الاثر الكبير، إنما هو نافلة من النوافل في هذا الوقت الذي نعيش فيه. فكلنا يدرك أثر الكلمة المكتوبة، سواء أكانت في كتاب أم في صحيفة أم دورية أم في نشرة أم في مُلْصَقة، وكذلك أثر الكلمة المنطوقة التي تخرج من مذياع او تلفاز أو من شريط مسجل. واذا كان الناس من قبل لا يستطيعون الوصول الى اللغة إلا من خلال الكلمة المكتوبة، يتخيرون أن يقرأوها او لا يقرأوها، فقد اقتحمت عليهم في زمننا هذا أجهزة الاعلام بيوتهم، وأصبحوا معرَّضين لهذه الكلمة سواء أرادوا ذلك ام لم يريدوا. وقويَ أثر هذه الاجهزة بتطور التقنية الحديثة، فكان هذا التلفاز الملوّن الذي يشدّ العين والاذن في آن معا الى ما ينقله أو يبثه، والذي يقتحم على كل منا بيته،

لكي يُسمِع صوته للكبير والصغير على السواء، بغض النظر عن أي مستوى ثقافي أو اجتماعي أو اقتصادي لهذا المستمع. ومن هنا كان هذا الأثر الجبار لأجهزة الاعلام في اللغة. واللغة ليست وسيلة اتصال ومواصلة فحسب، بل هي بالاضافة إلى ذلك، تصوغ الأحاسيس والأفكار. ولقد حرصت وزميليّ في هذا اللقاء على أن ننحصر قدر المستطاع، بل إلى أكبر حد مستطاع، في نطاق العنوان الذي خطّطنا له لهذه الندوة: «أثر أجهزة الاعلام في إشاعة اللغة العربية الفصيحة». ولذا فان ما نتحدث فيه سوف ينحصر في أُطُر خُطِّطَ لها أن تكون ملتصقة التصاقا تاما بالموضوع الذي اخترناه.

وهذه الاطر تحتوي أربعة بنود:

١ . ما الغرض من حرصنا على إشاعة العربية الفصيحة من خلال أجهزة الاعلام؟ هل هي زينة نتوخّاها، أم أن الأمر يتعلق بدور وظيفي مرتبط بحياتنا العملية؟

٢ . ما الذي نتصور أنه عوامل قصور وتقصير بالنسبة الى أجهزة الاعلام فيما يتعلق باللغة العربية السليمة؟

٣ . ما الذي نطلبه ونتوخاه ونتوقعه من أجهزة الاعلام بالنسبة الى إشاعة العربية السليمة؟

٤ . أيّ مقترحات وتوصيات محددة يمكن الخروج بها من هذه الندوة؟

أما بالنسبة الى الزميلين الكريمين، فانني أقصر القول عن كل منهما فيما يلي من المعلومات الموجزة:

فالأستاذ محمود الشريف كاتب وصحفي وباحث إعلامي مخضرم، عمل في حقل الاعلام منذ ثلاثين عاما، وأسس مجموعة من الصحف، منها صحيفة المنار، والأفق الجديد، وجوردن ستار، والدستور، وجمع بين رئاسة التحرير والادارة العامة لهذه الصحف. وقد عمل بين سنتي ١٩٦٨-١٩٧٤ مديرا عاما لادارة الاعلام في قَطَر، وأسس فيها التلفزيون القطري، وطوّر إذاعة قَطَر، وانشأ متحفها الوطني، ودوائر السياحة والآثار والثقافة والفنون، كما أسس معظم صحف قطر ومجلاتها، وهو عضو في عدد كبير من المؤسسات الاعلامية الاردنية والعربية والدولية، ويشغل حاليا منصب رئيس مجلس إدارة الدستور.

وأما الأستاذ أحمد العناني، فقد تخرج من مؤسسة تعليمية كانت في وقت من الأوقات لها سمة متميزة في العالم العربي بأكمله، تلك هي الكليّة العربية في القدس،

وقد تخرج منها عام ١٩٤١، ثم قام بدراسات خاصة عديدة وعمل فترة من الزمن في التدريس، ثم عمل في مكتب أمير دولة قطر في منصب مدير لابحاث التاريخ والوثائق، وذلك بين سنتي ١٩٧١ - ١٩٨٦. وقد زاول العمل الاعلامي منذ ما يزيد على خمس وأربعين سنة، وما يزال. وقد ترجم ودقق موسوعة دليل الخليج وتاريخه. وترجم كتاب السياسة المالية للدولة الاسلامية، ونشرت الترجمة في انجلترا في الصيف الماضي، ووضع كتابا بالانجليزية عن التاريخ المبكر لعرب الخليج، إضافة الى كتابته مجموعة من البحوث الخليجية، وألف مجموعة من الكتب في الأدب، ولا سيما في حقل القصة.

وأول ما نحاول بحثه معا، هو ما الذي نهدف اليه من تطلّبنا أن تقوم أجهزة الاعلام بدور في إشاعة العربية الفصيحة؟ هل هي زينة أو حلية نريد أن نتحلى بها، ام أن ثمّة أشياء وظيفية عملية تُبنىٰ على إشاعة العربية الفصيحة من خلال وسائل الاعلام؟

كلمَة

الاستاذ محمود الشريف

رئيس مجلس إدارة الشركة الأردنيّة للصِّحافة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستاذ الفاضل رئيس مجمع اللغة العربية الاردني

حضرات الاساتذة الاكرمين

حضرات السيدات والسادة :

أود أولا أن أشكر مجمع اللغة العربية على دعوتي للمشاركة في هذه الندوة التي تبحث فيما يمكن تسميته «بأزمة اللغة الفصيحة» ودور وسائل الإعلام في إشاعتها بين الناس. فاللغة الفصيحة تعاني من إهمال واضح في مجتمعاتنا العربية. ووسائل الاعلام تتحمل قدرا من المسؤولية في هذه الحال التي آلت إليها لغتنا الفصحى.

ولعلني لست بحاجة إلى الاسهاب في الحديث عن أهمية وخطر وسائل الاعلام في المجتمعات الحديثة. إذ لا شك عندي في أنكم قرأتم وسمعتم الكثير عن هذا الموضوع. بل إنكم تلمسون الاعلام وخطره في حياتكم وحياة عائلاتكم كل يوم.

فوسائل الاعلام (خصوصا تلك التي تخاطب الجماهير الواسعة في الأمة، وأعني بها الصحافة والاذاعة والتلفاز) أصبحت تتدخل وتؤثر في أدق تفاصيل حياتنا اليومية. وهي في اقتحامها لحياتنا، ومحاصرتها لنا في الليل والنهار، أصبحت تؤثر في طريقة تفكيرنا، وتحدد لنا أولوياتنا وردود فعلنا إزاء الاحداث، وتشكل لنا ولأولادنا وبناتنا وزوجاتنا أنماط السلوك، والاذواق، والمبادىء والقيم التي تقود مسيرتنا في هذه الحياة، وبالتالي أصبحت تتدخل في صياغة حاضرنا ومستقبلنا معا.

لذلك لا عجب أن يصف بعض الناس هذه الظاهرة، ظاهرة سيطرة الاعلام على المجتمعات الحديثة، بأنها (ثورة). ويصف العصر الذي نعيش فيه بأنه عصر (ثورة الاعلام).

غير أن لهذه الثورة كما تعلمون حسناتها وسيئاتها، وفوائدها ومضارها. فاذا كان من حسناتها أنها كسرت احتكار (المعرفة)، وجعلتها بعد أن كانت حكرا للقلة المتعلمة أو المثقفة، مشاعا بين الملايين من البشر، فان من سيئاتها أنها تهدد بكثير مما تنشره

وتذيعه بين الناس، الثقافات الوطنية للشعوب، وتشكل خطرا على تقاليدها ومواريثها وخصائصها المميزة.

واذا كان من حسنات ثورة الاعلام أنها حطمت حواجز الزمان والمكان، وجعلت من هذا الكوكب الأرضي (قرية) صغيرة تتجاور فيها الاديان والاجناس والثقافات، فان من سيئاتها أنها فتحت الأبواب على مصاريعها، لهذا الفيض الهائل من صور الترويج والاغراء اللذيْن تصبهما على الناس عن طريق الافلام والبرامج والمواد المستوردة وفرضت عليهم بذلك أنماطا سلبية من السلوك، تتناقض في كثير من الحالات مع تقاليد المجتمع، وتهدد تراثه الثقافي.

فاذا كان هذا هو خطر الاعلام في صياغة (الذوق العام) للشعب، فما هو إذن موقفها من اللغة الفصيحة ودورها في إشاعة استعمالها في المجتمع؟

إننا إذا نظرنا في القوانين والأنظمة التي أنشئت بموجبها وسائل الاعلام الرسمية (وأعني هنا الاذاعة والتلفزيون)، لا نجد نصوصا واضحة تلزم المؤسستين بأداء دور معين في اشاعة اللغة الفصيحة بين أبناء الشعب. ولعل السبب في ذلك (إذا أردنا ترجيح حسن النية) يعود الى الافتراض بأن المسؤولين عن الاعلام الرسمي، سيحرصون من تلقاء أنفسهم على الاعلاء من شأن اللغة الفصيحة، فيما يقدمونه للناس من برامج وموضوعات، باعتبارها اللغة الأم التي لا تحتاج الحفاوة بها، والاهتمام بأمرها الى نصوص أو قوانين. ولكن إذا صح وجود مثل هذا الافتراض عند الذين سنوا القوانين المؤسِّسَة لوسائل الاعلام الرسمية، فان النتائج التي نلمسها تكشف بأن العاملين في الاذاعة والتلفزيون، لا يحسون بمسؤولية خاصة تجاه إشاعة استخدام اللغة الفصيحة في أوساط الجماهير، شأنهم في ذلك– للأسف– شأن مؤسسات الاذاعة والتلفزيون في سائر أرجاء الوطن العربي الكبير.

أما الصحافة فشأنها مختلف نوعا ما، حيث أنها تنشر مادتها في الأساس باللغة المكتوبة التي هي الفصحى، على الرغم مما نلاحظه في فصحى الصحافة أحيانا من خروج على قواعدها في النحو والصرف، ومن تلويث لها بالالفاظ العامية او الدخيلة، أو استخدام خاطىء للألفاظ على غير ما تدل عليه معانيها الصحيحة. ولكن لا بد من

الاعتراف بان اللغة الفصيحة المستعملة في الصحافة العربية اليوم، تختلف اختلافا بيّنا عن الفصحى التي عرفها العرب في الماضي. ذلك انه يستحيل الكتابة اليوم بلغة الزمخشري والحريري. (وسأعود لتفصيل هذه النقطة بعد قليل). كذلك فان فصحى الصحافة العربية اليوم تختلف حتى عن الفصحى التي كانت تكتب بها الصحافة العربية في مطلع هذا القرن، حيث أصبحت فصحى مبسطة، سقطت منها بالضرورة أشكال السجع، والوان الزخرفة اللفظية التي سادت الكتابة الفصحى الى عهد ليس ببعيد. فهذه جريدة (لسان الحال) التي صدرت في بيروت منذ مائة عام تلتزم في افتتاحيتها بالفصحى المسجوعة. وها هو صاحبها الماروني خليل سركيس يبدأ الافتتاحية بقوله: «الحمد لله الذي يُسبَّح بحمده في الغدو والآصال، ويَنْطِقُ مفصحاً بتعدد آلائه (لسان الحال).. حمدا يدوم آناء الليل واطراف النهار، ما غرّد قمريٌّ وترنم هزار.. ثم تمضي الافتتاحية كلها على هذا النحو المسجوع. بل إن افتتان زملائنا الصحفيين في تلك الايام بأساليب الأداء القديمة للغة، دفع بعضهم الى استخدام الشعر في رواية الاخبار. فهذه جريدة كان يصدرها في مطلع القرن صحفي يدعى أمين ناصر في ساحل بيروت، تصف عاصفة شديدة ألمت ببلده (جزين) وسببت خسائر مالية كبيرة بقصيدة شعرية تقول:

ولقد غدا شجر الصنوبر مائلاً تلك الربوع وبالألوف تَقَـدّرا
(والجوز والزيتون وكذا السقوف عن المنازل بالعواصف طُيرا)
وديار (تيما) لم يعد لسقوفها أثر... وقد أوت الوحوش الى القرى
والثلج قد غطى الديار جميعها وانسدت الطرقات حتى لا تُرى

واذا نحن شكونا غربَةَ الفصحى في ديارنا هذه الايام، فاننا قد نجد بعض العزاء فيما نقرؤه عن حال الفصحى التي كانت تستخدمها بعض الصحف العربية منذ نصف قرن. فها هو اديب العربيةِ المرحوم مصطفى صادق الرافعي، ينعي على أمته في زمانه، إهمالها شأن الفصحى فيما ينقله عن الحال المزرية التي وصلت اليها فيما كتبته احدى الصحف والتي كانت تصدر في (طنجة) وهي تتحدث عن فريضة الحج. تقول الصحيفة: «الكعبة مبنية من طرف ابراهيم خليل الله. ولكن بمرور الدهر والازمان، وبتأثير سيلان وامطار قد خربت مرارا. ولكنها تصلحت من موادها القديمة واحجارها الابتدائية. وحجر الاسود موضوعة بمحلها بيد المباركة المحمدية ﷺ. ونظرا للتواريخ القديمة إن

ان ماء زمزم خرجت من ضربة قدم سيدنا اسماعيل ومن المعاني والمباني ... زيارة بيت الله المقدس.. أهم المادة وهي اجتماع مسلمين العالم في كل سنة في الاراضي المقدسه الحجازية بتأييد الولاء والمخالصة بين العالم الاسلامي » .

ان صحافتنا العربية اليوم على الرغم مما نأخذه عليها من تقصير في شأن الفصحى ، هي على وجه اليقين، أكثر حفاوة بالعربية من صحيفة طنجة ، واكثر التزاما بالاسلوب الصحفي الحديث في صياغة الاخبار من جريدة لسان الحال !

غير أن ذلك لا ينبغي أن يحجب عن أعيننا حقيقة هبوط مستوى الاهتمام باللغة الفصيحة بصورة عامة في الصحافة العربية ، وان كانت هناك بطبيعة الحال فروق بين صحيفة وصحيفة وقطر وقطر . فالصحافة المصرية مثلا تميل اكثر من غيرها لاستخدام العامية المصرية في تعليقاتها ومعالجاتها . ومن شاء فليقرأ المجلات التي تصدر عن دار روز اليوسف ، وبالقياس نلاحظ أن هناك اهتماما واضحا بسلامة اللغة العربية في جريدة (النهار) اللبنانية ، وهكذا ..

أعيد القول بأنه وان كانت هناك فروق لا يسمح الوقت باستعراضها وتحليلها (ولعل مجمع اللغة العربية الاردني يقوم باعداد مثل هذه الدراسة ونشرها) ، فان الصحافة العربية لا تعطي الاهتمام الواعي المطلوب لقضية اللغة الفصيحة ، وأساليب إشاعتها بين الناس. ولكن الصحافة تظل على كل حال أكثر حفاوة بالفصحى من الاذاعة والتلفزيون . ولعل من أسباب ذلك أن الصحافة موجهة باللغة المكتوبة للفئات المتعلمة في المجتمع ، بينما الاذاعة والتلفزيون تخاطب جماهير المتعلمين والأميين على حد سواء ، ولهذا فهي تراوح بين استخدام الفصيحة والعامية في موادها الاعلامية .

ولما كانت الاذاعة والتلفزيون يُخاطبان الناس على اختلاف أعمارهم وأذواقهم ومهنهم ويخاطبان ابن المدينة وابن الريف ، وابن البادية ، فهما مضطران الى المزج بين استخدام اللسان الفصيح واللسان العامي ، بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة الاعلامية نفسها والمستوى التعليمي للفئة التي يوجه اليها الخطاب .

وبعبارة اخرى ، فان التنوع في طبيعة المستمع أو المشاهد ، فرض تنوعا في طبيعة اللسان الذي تقدم به المادة اليه . وقد نجم عن ذلك (تقاليد) معينة في استخدام اللغة التي تقدم بها برامج الاذاعة والتلفزيون ، تبنتها جميع الاذاعات العربية .

فمن هذه التقاليد على سبيل المثال أن تقدم الاخبار والتعليقات السياسية والبرامج الثقافية والدينية وما شابهها باللغة الفصيحة، وان تقدم البرامج الغنائية، وبرامج التسلية والمسابقات والبرامج الموجهة للاطفال وربات البيوت وسكان الريف باللغة العامية بل اننا نلاحظ ان المسلسلات التي تتناول حياة الناس في هذا الزمان (سواء ما ننتجه منها في الاردن او ما نستورده من مصر ومن غيرها من البلدان الشقيقة)، يقدم باللهجة العامية المحلية. والمسلسلات التي تدور أحداثها في بادية الاردن مثلا لا تقدم باللسان العامي فحسب، ولكن باللهجة البدوية، بينما يختلف الأمر إذا كان المسلسل يتناول فترة في التاريخ العربي الاسلامي القديم، فانه يقدم بالفصحى التي يفترض أنها لغة ذلك العصر.

وهكذا فان المادة المذاعة تفرض لهجتها، وليس في ذلك فيما أرى عيب أو تقصير. ذلك أنه لا يدور بخلد أحد أن يُقَدَّمَ برنامج موجّه للفلاحين في الأردن مثلا عن وقاية أشجار الفاكهة من الحشرات الضارة أو لربات البيوت عن صنع الحلوى باللغة العربية الفصيحة.

إن علينا ان نعترف إذن بحتمية هذا المزج بين العامية والفصحى فيما تقدمه الاذاعة والتلفزيون للناس من مواد اعلامية متنوعة. غير اننا مع ذلك كله، نحس أن من واجب الاذاعة والتلفزيون أن يسعيا إلى إشاعة الفصحى والى تقديمها على العامية كلما كان ذلك ممكنا.

كذلك فاننا ندعو الى ان تُقَرَّبَ البرامج التي تقدم بالعامية في الاذاعة والتلفزيون من الفصحى قدر الامكان، وبعبارة اخرى أن تكون عاميتُها نوعا من الفصحى المبسطة، فذلك أدعى لتعويد آذان الناس على سماع الفصحى، والتعلق بها، والاقتراب منها حتى في أحاديثهم العادية وتعاملهم بعضهم مع بعض. كذلك نرجو أن تتخلص البرامج التي تقدمها الاذاعة باللغة الفصيحة، من كل ما يشوبها من اعوجاج، وتلوث، وعجمة، وان يتقيد المذيعون والمذيعات بأصول النحو والصرف، وان ينطقوا الألفاظ نطقا صحيحا، وان يحاولوا ما وسعهم الجهد مطابقة الكلمات لمدلولاتها في اللغة وتطهير اللغة السياسية المستعملة في وسائل الاعلام من عبارات المبالغة، والصيغ اللغوية البرّاقة التي تجعل المواطن العربي يشك في صحة ما يسمع، خصوصا اذا كان الواقع الملموس يناقض الصورة التي تحاول أن ترسمها وسائل الاعلام.

إننا نرجو أن نتعلم الدقة في استعمال الالفاظ، بحيث يكون المعنى على قدر المبنى لا ينقص عنه ولا يزيد عليه. ذلك أن لغتنا العربية قد أصبحت تتهم بأنها لغة (فضفاضة) قاصرة عن ترجمة ما في الوجدان بالدقة المطلوبة. وليس العيب في اللغة وانما في أسلوب استخدامها. وفي هذا يقول الدكتور زكي جابر: «لقد أصبحت أجهزة الاعلام العربية (مجرشة كلام) تطحن الملايين من الكلمات التي تفتقر الى دقة المعنى، ولهذا فان المبالغة التي تحفل بها اللغة العربية السائدة في وسائل الاعلام قد تركت بصماتها على المدركات، بحيث أصبحت المغالاة والمبالغة من ميزات السلوك عند الفرد العربي. وحلت الكلمات لديه محل الافعال».

وانه لمما يحزن الغيارى على اللغة الفصيحة، أن يلاحظوا أن إذاعة لندن البريطانية الناطقة بالعربية هي الأكثر احتراما للغة من سائر الاذاعات في الوطن العربي. ويبدو ذلك أكثر ما يبدو في نشرات الاخبار. وإنك لتلاحظ حرص المذيعين في تلك الاذاعة على الدقة في اختيار الالفاظ المناسبة للمعاني، وعلى سلامة النطق، والتقيد بقواعد النحو والصرف. وهي أمور لا تحظى للأسف الشديد باهتمام أقرانهم في الاذاعات العربية. واذا كانت إذاعة لندن قد فرضت على العاملين فيها احترام اللغة الفصيحة، فلست أدرى لماذا يكون عسيراً على إذاعاتنا العربية أن تحذو حذو الاذاعة البريطانية، وان تنسج على منوالها.

وقد يتساءل بعضكم لماذا تقف أجهزة الاعلام العربي هذا الموقف من اللغة الفصيحة؟ هل هو الاهمال وحده؟ أم ان هناك عوامل أخرى ينبغي ان تكون موضع الدراسة والتحليل.

لا شك أن الاهمال واللامبالاة هما سببان أساسيان في موقف وسائل الاعلام من اللغة الفصيحة. ولكن هناك أسبابا أخرى تتجاوز الاعلام ووسائله، تتصل أولا بموقف المجتمع كله من قضية الفصحى، وثانيا بموقف الفصحى من الحياة.

فالاعلاميون هم في نهاية الامر نتاج عصرهم وثمرة المناخ السائد في مجتمعاتهم.

أول هذه الاسباب فيما أرى هو نظام التعليم في بلادنا العربية، حيث تدنى الاهتمام بتعليم اللغة الفصيحة للاطفال والراشدين على حد سواء، وادى انتشار المدارس ورياض الاطفال الاجنبية الى خلق المنافسة في نفوس أطفالنا بين اللغات الاجنبية التي تعلمها هذه المدارس وبين اللغة الام في سنوات التكوين النفسي والذهني للطفل العربي، وهي السنوات

التي يتشكل فيها ذوقه، وتتبلور فيها شخصيته، ويكتسب صفات واذواقا معينة، تظل معه طول العمر.

ولعلني لا أبالغ إذا قلت إنّ من أكبر الكوارث التي حلت باللغة الفصيحة هي أننا سمحنا بتلويث ثقافة الطفل العربي ووجدانه ونظرته، بالثقافة الاجنبية وباللغات الاجنبية، وهو ما يزال طري العود، وغرسنا في ذاتيته هوان لغته الأم بالقياس للغات الاخرى.

أليس لنا أن نتساءل والحالة هذه: كيف يمكن لطفل عربي تخرج من هذه المدارس وهو يرطن باللغات الاجنبية، ثم التحق بالمدارس الابتدائية فالثانوية، ثم دخل الجامعة، حيث تلقى حظا قليلا من اللغة الفصيحة على أساس أنها (مادة) في مناهج الدراسة، وليست كما ينبغي ان تكون عنوانا لوجوده وتعبيرا عن قوميته، كيف يمكن لهذا الطفل بعد أن شَبَّ عن الطوق وتخرج من الجامعة طبيبا أو مهندسا أو محاميا أن يحترم لغة لم ينشأ على احترامها وهو صغير؟ وكيف يمكن له ان يتكلّمها من غير لحن او اعوجاج وقد غرسنا في أعماق أعماقه منذ الصغر أنّ دراسةَ اللغةِ الوطنيةِ ليس هدفا متصلا بوجوده كانسان في مجتمع يحترم لغته وتراثه وانما هي مجرد جسر يجتازه للحصول على الشهادة؟

ان اللغةَ كما تعلمون أيها السيدات والسادة، ليست مجرد (مادة) علمية في مناهج الدراسة، وانما هي أكبر واخطر من ذلك بكثير. فهي مادة الوجود الانساني ذاته، هي عنوان شرف الامة والشارة التي تميزها عن غيرها من الامم. هي ذاكرة الامة والوعاء الذي يحفظ تاريخها، وهي المستودع الاكبر الأمين لكل التراث الاجتماعي. وهي أيضا العامل الأوحد لنشر هذا التراث بصورة مشتركة بين أبناء الامة. بل هي علة ضم أفراد الامة بعضِهم الى بَعْض. بها يتسلم الجيل الطالع المتواري نظرته في الانسان، والطبيعة، والخالق، فهي إذن همزة الوصل بين أجيال الامة. لقد وعت الامم العظيمة هذه الحقيقة فأنزلت لغتها القومية أرفع المنازل، وتباهت بها في اعتزاز وكبرياء. وفي هذا يقول (برتراندرسل) إن الاستعلاء العرقي للشعب الالماني عند الفيلسوف نيتشه ينبع في حقيقته من نظرته لسمو اللغة الالمانية، وعظمتها، واستعصائها على التلوث والتهجين.

ويقول الدكتور كمال يوسف الحاج في مؤلفه الرائع عن فلسفة اللغة «من أجل ذلك، كان عظيما جدا خطأ الذين يفرضون لغة اجنبية كأداة للتدريس على التلميذ دون سن العاشرة.

فكأنهم يفرضون عليه أن يعيش غير تاريخه، أن ينتسب الى أجداد غير اجداده، وان بنتمي الى غير فصيلته، الى غير أمته، وان يتصرف بلسانه عكس منطق العفوية التي فطره الله عليها. إنّ معارف مثل هذا الجيل هي ضرب من الزنى الفكري المخرب لعفاف التاريخ القومي. ولذلك من المستحسن أن ينتظر الولد ريثما يكون قد اكتسب لغته الام، قبل أن يقدم على دراسة لغة ثانية. إنّ من الضروري أيضا تعليمه في مرحلة الصغر النطق الصحيح، والتعبير القويم والقواعد اللغوية السليمة. لان الولد الذي يتدرب على صحة التعبير، يتدرب على صحة التفكير. اذ التعبير والتفكير جوهر واحد. فاذا اعتاد الولد منذ صغره سماع اللغة الصافية، تعلم طرق استخدامها بغير عناء. وكل الأمم الراقية وعت هذه الحقيقية النفسية والتربوية، فلم تسمح بتسرب لغة أجنبية الى قلوب الأولاد دون سن العاشرة.»

ثم يمضي الدكتور الحاج فيقول: لقد دلّتْ جميعُ الأبحاث النفسية واللغوية على أنّ الولدَ الذي يزاول لغةً أخرى مَعَ لغته القومية، وهو دون العاشرة، تضعف طاقته الاستيعابية بين لغتين. واحدة يتكلمها بتلقائية وواحدة يتكلمها بجهد في اللسان والفكر، مما يجعله يتذبذب بينهما، بدلا من أن يستقر في حضن لغته القومية. وهكذا يتوزع الولد بين تاريخين وعبقريتين. حيث ان لكل لسان عبقرية خاصة. فإذا استطاع المرء لفترة من الوقت أن يوفق بين لسانين في صغره، فإنه يعجِزُ عن ذلك في كبره. إذ لا بد لاحدى اللغتين من أنْ تسيطر على الثانية. لا مجال لازدواجية لسانية في آن واحد، لانها عكس شريعة الحياة ومنطق الواقع الانساني.

وها هو الدكتور يروي لنا قصته الذاتية وكيف نشأ يتعلم الفرنسية والعربية في المدارس الاجنبية، ثم سافر الى باريس واكتشف هناك نسق لغته القومية، فظل يكافح حتى استعاده. وهذه القصة المؤثرة جديرة بأن يتعظ بها كل المربين الذين يتصدون لتعليم الطفل في بلادنا العربية.

يقول الدكتور الحاج «لقد شعرت في باريس بانني بَعُدت عن نقاءِ العربية، فسليقتها الرفيعة في القلم، ومجراها السريع في الاداء. ثم شعرت من جهة أخرى بأنني لم أدنُ من نقاءِ الفرنسية فسليقتها الرفيعة في القلم، ومجراها السريع في الاداء. وهكذا ترنحت مضغوطا بين لسانين مبتورين فيّ...بَعُدتُ عن صفاء اللغة العربية، وعن بداهتها في اللسان، ورشاقتها في الكتابة. بعدت عنها لأنني هجرتها كتابة وقراءة ومشافهة.

وفي الوقت نفسه، لم يعد ممكنا لي أنْ أدركَ عَفاف اللسان الفرنسي أي عبقريته (يقول هذا وهو الذي ترجم كتب الفيلسوف برغسون الى العربية).

لم يعد ممكنا لي أن أدرك عفاف اللسان الفرنسي، لان مهدي بلاد الشرق، وأرضي وسمائي وهوائي وشعبي وخلاني من بلاد الشرق. وهكذا عدت للغتي الأم أكتب بها. ذلك ان الانسان لا يكتب بأنامله وانما يكتب بكيانه كله. بجسمه، بروحه. يكتب بماضيه وماضي قومه. ويكتب بمناخ الطبيعة التي ولد في أحضانها»

نخلص من هذا العرض الى أهمية ترسيخ حب اللغة الفصيحة في أعماق الانسان الاردني والعربي منذ نعومة أظفاره. وتحضرني في هذا المقام مقارنة بين الذين يدرسون في رياض الاطفال الحديثة، وبين الجيل الذي درس اللغة العربية في (كتاب القرية). واذا كان من العدل أن نعترف بأن رياض الاطفال والمدارس الابتدائية الحديثة، قد ادخلت في تعليم الناشئة دورسا ومواد لم تكن تتاح لطلاب (الكتاتيب)، فان لكتّاب القرية فضل السبق على المدرسة الحديثة في جانب مهم وهو تركيز اللغة العربية الفصيحة في وجدان الاجيال التي درست فيه، وله الفضل فيما منَّ الله به على هذه الاجيال من حب للفصحى، نراها في استقامة ألسنتهم ونفورهم من العجمة، والاصرار على اختيار الاروع والاسلس من أساليب التعبير. كان هذا الجيل يحفظ في (كتاب القرية) عن ظهر قلب ثلث القرآن أو نصفه، دون أن يدرك – أحيانا – تفسير ما يقرأ او معانيه. والويل كل الويل لمن كان يلحن أو يخطيء في نطق كلمة أو آية. كان يحفظ عن ظهر قلب المعلقات السبع ومختارات من الشعر الجاهلي والعباسي وشعر المتأخرين والشعر الحديث. وكان بعد انتقاله لمراحل الدراسة المتوسطة والعليا، يقرأ ويحفظ لأساطين الفكر والشعر والادب العربي الحديث من أمثال العقاد وطه حسين والمازني والرافعي وشوقي وخليل مطران وحافظ ابراهيم واسعاف النشاشيبي وابراهيم طوقان والرصافي وغيرهم.
كان يتخاطف مجلة (الرسالة) ويستمتع بالقراءة لتلك النخبة العظيمة من رواد الفكر، وعمالقة القلم، على صفحاتها، وكان يشترك في جمعيات مدرسية للخطابة والمناظرة والتمثيل والمطالعة (كان يعيش الفصحى ويستنشقها آناء الليل وأطراف النهار.

هكذا نشأ هذا الجيل على حُبّ اللغة الفصيحة، وانغرس تعظيمها واحترامها في صميم وجدانه منذُ الصّغر. فهل تجدون في تعليم اللغة الفصيحة في المدارس الحديثة

اليوم شيئا من هذا الذي ذكرت؟ أين من يحفظ بغير لحن جزءاً واحداً من القرآن الكريم من بين طلاب المدارس الابتدائية ورياض الاطفال؟ وانا هنا لا اتكلم عن حفظ القرآن باعتباره واجبا دينيا على الطفل المسلم.

ولكنني أتكلم عنه من حيث هو غرسٌ لراية اللغةِ الفصيحةِ وحلاوة البيان الالهي في صميم وجدان الطفل العربي، مسلما كان أم غير مسلم. فها هو المحامي القبطي المصري الاشهر مكرم عبيد الذي كان صوته يدوّي في ساحات القضاء ببلاغة عربية لا أروع منها ولا أحلى، يرد الفضل في إمساكه بناصية البيان إلى حفظه لأجزاء كثيرةٍ من القرآن الكريم.

لذلك فانني اعتقد انه ليس كحفظ القرآن الكريم، والنثر الجيد، والشعر الاصيل وسيلة لغرس اللغة الفصيحة في فطرة الناشئة، بحيث يتشربون عبقريتها، ويتصلون بروحها، ويشبون على عشقها، وتنمو السنتهم على التحدث بها بغير عناء.

أنني أتساءل: هل توجد في عالمنا العربي اليوم مجلة كالرسالة او الثقافة، ترفع لواء اللغة الفصيحة، وتتيح لطلابنا ان ينهلوا من نبعها الصافي؟ بل اين فيمن يكتب اليوم من ادبائنا من يُعنى بدقة العبارة وجمال الاسلوب مثل الرافعي والعقاد، وطه حسين، والنشاشيبي، بحيث تتلمذ على ايديهم الاجيال الشابة؟

إننا نعيش – أيها السيدات والسادة – في عصر السرعة...عصر (السندوتش) ....عصر الأدب المعلب والأفكار المعلبة، واللغة المعلبة! إن أبناءنا يتتلمذون على مجلات الشبكة والموعد، والموتور وعالم الفيديو، وعالم السيارات. نحن نعيش عصر الادب المطلسم والشعر الطمطماني الذي لايفهمه– على الاغلب – حتى ناظموه. نعيش عصر الدعوة المشبوهة لانزال الفصحى عن عرشها نهائيا واستبدال اللهجات العامية بها، عصر الكلام الفارغ الذي يسيل أنهارا على صفحات الصحف والمجلات، وفيه من الزبد الغث أكثر مما فيه ينفع الناس ويمكث في الارض.

يقول المدافعون عن الغموض في الأدب الحديث الذي ابتليت به لغتنا الفصيحة في زماننا هذا، يقولون إن هذا الأدب تعبير عما يجيش في صدور الشعراء والكتاب، وانه ليس ثمة ضرورة أنْ يفهم الناس ما يقولون وما يكتبون. ولكن هل اللغة إلا مرآة تعكس ما في الوجدان؟ إن وضوح الفكرة يؤدي الى وضوح التعبير. والمبنى الواضح كما يقول الدكتور

كمال الحاج « وليد معنى واضح . والرديء الوحشي من الالفاظ يعكس رديئا وحشيا من المعاني . والالفاظ المبهمة والغليظة النافرة القلقة ، هي في أساسها معان مبهمة غليظة نافرة قلقة . ذلك ان الالفاظ لا تقصر عن المعاني ولا تزيد عليها واذا انحطت الكلمات انحطت الذهنيات ، وتعطلت نيات النفس واذا انجلت الكلمات انجلت الذهنيات ، واستقامت نيات النفس » .

فاذا كانت هذه هي حال العصر ، وحال الاهتمام بالفصحى في بلادنا العربيّة وحال (المناخ العام) في الثقافة الرابحة ، فكيف يراد للاعلام ووسائله ورجاله ، أن يظلوا بمنجاة من كل هذه المؤثرات السلبية ، قلاعا معزولة تدافع عن شرف الفصحى في وجه مد جارف يهددها ، ويحاول اقتلاعها من الجذور ؟ ان المشكلة كما قلت ، تتجاوز الاعلام واجهزته لتتصل بموقف المجتمع كله وموقف الذين يضعون سياسات التعليم للاجيال الصاعدة من اللغة القومية .

ان المرء ليساوره الشك أحيانا بأن فينا من يخجل من عروبته ، ويستحي من الانتساب للغتها وتراثها وتاريخها . فبعض العائلات الموسرة في بلادنا العربية تعلم أطفالها عندما يبدأون النطق أسماء الاشياء باللغات الاجنبية ، على أساس أن الكلام بها من علامات التحضر والتقدم ومنهم من يستأجر لأطفاله مربية انجليزية او فرنسية لا لشيء الا ليأخذوا عنها لغتها منذ الصغر ، ولئن أردنا ان نُدخل علم النفس في تحليل هذه الظاهرة فاننا لا مناص منتهين الى أن هذه الفئة من الناس ، تحس في داخلها باننا امة مهزومة ، عليها أن تفر من لغتها وتراثها الى لغة وتراث الآخرين .

نأتي الآن الى موقف اللغة الفصيحة من الحياة ، ذلك أن قصور اللغة ، أية لغة عن مجاراة التطور الواقع في مظاهر الحياة ، ينبذها خارج تيار التاريخ ويقضي عليها بالاضمحلال فالزوال . وهناك لغات كثيرة بادت ، لانها عَجَزَتْ عن التكيّف مع مقتضيات التجدد الذي تفرضه سنة الوجود .

فاللغة العربية وأساليبها تتطور بتطور الحياة نفسها ، وهذا الناموس يسري على كل اللغات . ولا أظن احداً يكتب الانجليزية اليوم بلغة شكسبير ، او الايطالية بلغة دانتي . غير ان الذين يكتبون من ابناء هذه الشعوب اليوم ، يتعلمون لغتهم الفصيحة منذ الصغر ، ويحترمونها أشد الاحترام ، ويحرصون كل الحرص على التقيد بقواعدها في النحو

والصرف، ولا يتجرأون على الدعوة لاحلال اللهجات العامية محلها. ولعلنا حين ندعو الى احترام اللغة الفصيحة، واشاعة استعمالها في بلادنا، لا ندعو الى إحياء لغة الجاحظ والحريري في النثر أو لغة عمرو بن كلثوم والحطيئة في الشعر. ولكننا ندعو الى المحافظة على (جوهر) اللغة الفصيحة، والاهتمام بنحوها وصرفها وغرس احترامها في نفوس الناشئة من خلال تدريبهم على دقة التعبير، وسلامة الاداء، وصحة النطق، واستعمال اللفظ الفصيح مكان اللفظ العامي ما دام مؤديا لمعناه، كل ذلك مع التسليم بضرورة تطويع اللغة نفسها لمتقضيات العصر ولحاجات المجتمع، وبالاساليب نفسها التي طوّع بها السابقون اللغة لحاجات عصرهم.

ان هناكَ من يدعو الى احلال اللهجات العامية محل الفصحى في الأدب والشعر والمسرح جملة. وهناك من يدعو الى إحلال اللهجات العامية من الوجود واحلال الفصحى مكانها في كل شيء. وكلتا الدعوتين فيما أرى محكوم عليها بالفشل لمعارضتها منطق الحياة. فالدعوة الاولى هدم في صرح الوجود القومي للأمة وتقطيع للصلة الثقافية الوحيدة التي تربط بين الاقطار العربية، وبينها وبين الشعوب الاسلامية التي أخذت تفرض تعليم اللغة الفصيحة في بلادها (كما فعلت باكستان) لكي تزداد فهما للغة القرآن العظيم. والدعوة الثانية دعوة لا عقلانية، لن تبلغَ هدفها لأنها كما قلت مخالفة لشريعة الحياة.

فالازدواجية بين العامية والفصحى موجودةٌ في كل اللغات. لذلك لا مناص من تعايش اللسانين في الوطن الواحد. فالعامية هي لسان الحياة اليومية، وهي غالبا ما تكون مأخوذة عن الفصحى، واحيانا تكون اختصارا وتبسيطا لها. لذلك يستحيل إلغاؤها بقرار، مهما عظم شأن المرجع الذي يصدر عنه.

ولعل مما يفرضه المنطق والعقل أن نسلم بتجاور اللسانين، ثم نجهد ما وسعنا الجهد ان نحول دون طغيان العامية على الفصحى، من خلال المحافظة عليها بالاساليب التي ذكرتُ، ومن خلال تبسيطها وتطويرها لتكون أداة سهلة طيعة للاستعمال.

تبقى امامنا مشكلة تعريب الالفاظ والمصطلحات الاجنبية السائدة، وهي المهمة التي تحاول القيام بها مشكورة، مجامع اللغة في الوطن العربي. ولست أدري فيما اذا كان من

حقي وانا المتطفل على الموضوع كله، التعرض لمسألة التعريب في وجود الاساتذة الاجلاء المشتغلين بهذه المسألة باعتبارها رسالتهم في الحياة.

غير ان تفشي الالفاظ والمصطلحات الاجنبية في المواد الاعلامية التي تنشر وتذاع على الناس، والانتقاد الشديد الذي توجهه مجامع اللغة للاجهزة الاعلامية بسبب هذه الظاهرة (وهي محقة في ذلك الى حد ما) كل ذلك قد يغفر لي - كإعلاميّ قديم - ابداء رأيي المتواضع في مسألة التعريب.

ان علينا ان نعترف بداية بصعوبة المهمة التي تتصدى لها مجامع اللغة العربية في هذا المضمار. فنحن في الشرق ما زلنا عالة على الغرب في معظم ميادين العلم الحديث. والذي يخترع شيئا، هو الذي يضع اسما ملائما له. وحين كان العرب سادة الحضارة العالمية، كانوا يضعون لكل مكتشفاتهم أسماء عربية فَرَضُوُها حتى اليوم على لغات الاخرين. فأسماء النجوم والابراج والاسماء التي أعطاها العرب لكشوفهم في علوم الطب والزراعة والكيمياء والجغرافية والرياضيات والبصريات في العصور الذهبية لنهضتهم، ما تزال تحتل مكانها في لغات الغرب بصيغها العربية، مع بعض التعديل الذي يتناسب وعبقرية هذه اللغات. وهذا دليل على ان المتقدم في ميادين العلم والاكتشاف، يفرض الاسماء والمصطلحات التي يضعها على غيره. ولهذا فنحن نجرى اليوم وراء لغات الغرب نأخذ منها ما استطعنا أخذه من الاسماء والمصطلحات إلى لغتنا العربية. وهذه التبعية اللغوية هي أحد مظاهر التبعية الحضارية. فاللغة القومية والامة القوية شرطان متلازمان. واللغة تزدهر بازدهار الامة وترتقي بارتقائها...حتى اذا ما انحدرت الامة انحدرت لغتها معها.

والتطور المستمر السريع في العلوم الغربية، يقذف علينا كل يوم المئات من الكلمات والمصطلحات الجديدة المشتقة من جذور اللغات الغربية لا في مجال العلوم التطبيقية فحسب، ولكن في العلوم الانسانية ايضا كالفلسفة والاعلام والتاريخ والاجتماع وعلم النفس وغير ذلك. وهكذا فان عملية الابداع والاشتقاق والتركيب تجرى كلها في نطاق لغات حية متجددة. والعلم هناك يرفد اللغة، واللغة ترفد العلم. والاثنان يتحركان صعودا يدا بيد نحو آفاقٍ جديدة من الابداع الانساني. اما دورنا فهو للأسف محصور في الوقوف على حافة هذا البركان الذي تتفاعل في جوفه عبقرية العلم مع عبقرية اللغة،

لنتلقى الحمم على السفوح ونحاول أن نعطيها (بعد أن تبرد وتتسرب منها حرارة التفاعل الخلّاق بين العقل واللسان) هوية عربية ، واسما عربيا ، لذلك لا عجب ان تكون بعض محاولاتنا في تطويع المصطلحات الاجنبية للغتنا الفصيحة ، محاولات متعثرة لانها تظل سطحية قاصرة على التعبير عن حرارة الخلق الاول للمصطلحات في أحضان لغتها الاصلية. ولعل هذا هو السبب في أن وسائل إعلامنا ، وبعض علمائنا ومفكرينا الذين درسوا العلوم الحديثة في الغرب ، يميلون لاستخدام المصطلح الاجنبي ذاته ، ولكن بحروف عربية ، إما لان نظيره في اللغة الفصيحة لم يوضع بعد ، واما لأن الأصل الاجنبي أصدق أداء في نقل المعنى المطلوب ، من المصطلح المعرّب ، وهكذا نقرأ في كتاباتهم كلمات مثل (الجيوفيولوجيا ، والفينوموفولوجيا ، والانتربولوجيا ، والديكالكية ، والديناميكية مكتوبة بالاحرف العربية ، وغير ذلك كثير.

غير ان المشكلة التي نواجهها في تعريب المصطلحات الاجنبية ليست مقصورة علينا وحدنا ، بل تواجهها كل الشعوب التي تأخذ اليوم من حضارة الغرب وتنقل ثمرات فكره وحضارته الى لغاتها. لذلك فان هذه المشكلة تستدعي منا عنادا واصرارا في التغلب عليها ، ليس لمواكبة حركة التقدم في العالم فحسب ، ولكن لاثراء لغتنا الفصيحة نفسها ، وتجديد حيويتها وابقائها داخل حلبة السباق مع اللغات الحية في هذا الكون.

وعملية (التبادل) بين اللغات قديمة قدم الحضارة الانسانية نفسها ، فلقد اخذنا من لغات الشعوب الاخرى ، واخذت هي من لغتنا الكثير من الكلمات والمصطلحات في الماضي. ومن خلال اساليب التعريب المعروفة كالوضع والاقتباس ، والاشتقاق ، والقلب ، والابدال ، أدخل علماء اللغة العربية الكثير من الكلمات الاعجمية الى اللغة العربية حتى اصبحت منها ، وضاعت منا أصولها حتى بتنا لا نعرف عنها الا القليل.

من يتصور مثلا أن كلمات السيف والفيل والبلطة ، والبندق ، والفردوس ، والسوسن ، والصندوق والاستاذ والالماس كلمات ذات أصول أعجمية.

نخلص مما سبق عرضه ، أن وسائلَ الإعلام في استخدامها بعض التعابير والمصطلحات الاجنبية إنما تعكس قصورا ما تزال تعاني منه اللغة الفصيحة في مجال التعريب وان كان ذلك لا يعفيها (أعني وسائل الاعلام) من تهمة التقصير في توخي اللفظ الفصيح مكان اللفظ الاجنبي كلما كان ذلك ممكنا ومتاحا.

أيها السيدات والسادة: استميحكم العذر في هذه الاطالة، ولكن دعوني ألخص ما أسلفت. إن اشاعة استعمال اللغة الفصيحة في وسائل الاعلام، يتطلب قبل كل شيء إعادة الاعتبار للغة الفصيحة في المجتمع نفسه. كما يتطلب جعل تعليم اللغة الفصيحة في كافة مراحل التعليم وخصوصا في المراحل الاولى – ركيزة أساسية من ركائز سياسة التعليم في بلادنا. كما يقتضي الاهتمام بتعزيز مكانة الفصحى والحض على احترامها في كافة مجالات النشاط الانساني، في الوزارات، والدوائر الحكومية، والتشريعات، والمداولات البرلمانية، وفيما ينشر على الناس باسم الادب والشعر والثقافة، وبعبارة اخرى فأن اعلاء شأن الفصحى ليس امرا منوطا بوسائل الاعلام وحدها (وإن كان لها دور مؤثر للغاية في هذا المجال) وانما هو أمر منوط بالامة كلها، وبمؤسساتها التعليمية والثقافية على وجه الخصوص.

كذلك ينبغي على مجامع اللغة أن تستمر في جهودها المشكورة، لتطويع الفصحى للحياة وسدّ الثغرة بينها وبين علوم العصر، من خلال تعريب المصطلحات العلمية الحديثة، بحيث نصل الى يوم تدرس فيه جميع العلوم في جامعاتنا ومدارسنا باللغة العربية كما هي الحال في الصين واليابان، وغيرها من دول العالم.
أما أجهزة الاعلام، فيجب النص فيّ قوانينها على استخدام اللغة الفصيحة استخداما صحيحا في البرامج والمواد التي تقدم بالفصحى. وان تحاول هذه الاجهزة تقريب العامية من الفصيحة في البرامج والمواد التي لا مناص من تقديمها باللسان العامي. كذلك نقترح اجراء مسابقات في اللغة الفصيحة للذين يتقدمون لملء وظائف المذيعين والمحررين في الاذاعة والتلفزيون، وتفضيل الاكفياء منهم على غيرهم في الحصول على هذه الوظائف. ونقترح ان تقدم جوائز تشجيعية للقدامى منهم، الذين ينجحون في استدارك ما فاتهم من معرفة باللغة الفصيحة عن طريق التعلم والمطالعة. ولقد يكون من المفيد توظيف (مراقبين) في الاذاعة والتلفزيون تكون مهمتهم ضبط نشرات الاخبار، والارتقاء بمستواها اللغوي، وتشكيلها للمذيعين قبل إذاعتها على الناس.

انني على يقين بأن هذه الاجراءات، كفيلة في حالة تنفيذها برد الاعتبار للغة الفصيحة، واشاعة استعمالها في اوساط الشعب من خلال وسائل الاعلام.

يبقى ...ان (العزم) هو الذي يسبق القرار، ويهدي اليه، ويصنعه.

فهل عزمنا على أن ننهى اغترابنا عن اللغة الفصيحة ، ونجدد شبابها ، ونتجدد بها ، وان نجعلها عنوان وجودنا ، واساس نهضتنا ؟

ذلك هو السؤال الكبير .

وحين نقصد العزم ، يهون امامنا كل صعب . ويسهل علينا كل شيء .

وقديما قيل (اذا صدق العزم وضح السبيل)

أشكركم ايها السيدات والسادة

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تعقيب: عقب الدكتور محمود ابراهيم– مدير الندوة– على كلمة الأستاذ محمود الشريف بقوله:

جميل أن نسمع هذا الجزء الأخير من كلام الأستاذ محمود، على الرغم من أن الغرب تفوّق علينا اقتصادياً وعلمياً وعسكرياً، ينبغي أن لا يجعلنا نؤمن بان هذا التفوق لا بدّ أن ينبى عليه شعورنا بالانسحاق الحضاري، وتسليمنا بما نعاني منه من تراجع لغوي. وهنا أذكر على سبيل المثال أن الناس في بلد كأيسلندا، وأيسلندا جزيرة صغيرة جدا، يصرّون على أنْ لا يدخل لغتهم من اللغات الأجنبية الا القليل جدا، على أساس انهم لا يريدون أن تطغى اللغات الأجنبية على لغتهم، على الرغم من أنهم أبناء جزيرة صغيرة. والمثل الذي أكره أن أورده كذلك، هو العدو الصهيوني المجاور لنا. فأية لغة كانت لهؤلاء الناس في فلسطين قبل عام ١٩١٣؟ ومع ذلك فهم الآن يستعملون اللغة العبرية في جميع مسارب الحياة عندهم، بما في ذلك لغة العلم والتقنية في جامعاتهم. ثم إن معرفتنا موضع الضعف فينا لا يعني بالضرورة أن نتقبل هذا الضعف، إذ ينبغي أن نرفض السيء، من أجل أن ننطلق الى وضع أفضل، كما فعلت أمم أخرى من قبلنا.

وأعود الى قضية اللغة القياسية، لغة وسائل الاعلام، فأقول إن أجهزة الاعلام يفترض أن تكوّن لدى المستمعين ما يسمى اللغة القياسية. ففي بريطانيا مثلا كانوا يسمّون اللغة القياسية او الراقية (King's English) اللغة الملكية. ومع الزمن، أصبحوا يسمونها (B.B.C English) أي لغة هيئة الأذاعة البريطانية. وفي أميركا يسمون اللغة القياسية (Network English) أي لغة وسائل الاعلام. وليس لنا نحن العرب من لغة قياسية الا اللغة العربية الفصيحة. فهل نخطط في أجهزة إعلامنا لكي تكون هذه اللغة العربية الفصيحة هي اللغة القياسية، اللغة المرجعية، ولا سيما أنه منذ أن تنزل القرآن الكريم وخُطَّ بالقلم، أصبح يكوّن لغة مرجعية مكتوبة للناطقين بالعربية. فهل نستغل هذه المعطيات الجديدة للتقنية من أجل أن نؤكد أن عربيتنا الفصيحة هي اللغة القياسية التي ينبغي أن تكون لغة مشتركة عامة بين الناطقين بالعربية حيثما كانوا. لعل الأستاذ أحمد يلقي ضوءا على الموضوع.

كلمة
الأستاذ أحمد العناني

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوعات الإعلام وسدانة اللغة الفصحى أمور سهلة الاتساع والتشعب، سريعة الاشتعال لاتصالها بقضايا وعواطف عميقة الأوتار في قلوبنا، لهذا أرى ابتداءً تحديد أبعاد الموضوع الذي نتناوله في هذه الندوة تحديداً يحفظنا بحرص في إطار موضوعي بالغ الوضوح.

وسائل الإعلام هي قنوات لمخاطبة السمع والبصر بأسلوب متميز، ممتع ومثير، وذلك للتأثير في قناعات وسلوك أكبر عدد ممكن من الناس المستهدفين إعلاميا.

أهم هذه القنوات في عصرنا الحاضر دون ريب هي الصحف والتلفزيون والاذاعة والسينما والمواد المسجلة والملصقات، والخطب والشعر.

إشاعة اللغة الفصحى معناها توسيع نطاق التكلم عفوياً أو شبه عفوي بلغة عربية التركيب، مُعْرَبَةٍ كليا أو جزئيا عربيةِ الأسلوب والنسبة الكبرى من المفردات

يبدو لي عدلًا أن يقال الآن إن المبحوث عنه في هذه الندوة بات واضحا وضوحا حاسما قاطعا.

وأرى مُفيدا جداً أن نظل نتذكر أن اللغة– أي لغة– هي نشاط إنساني يتطور بالممارسة تماما كالمشي والركض وذلك وفق الأنماط المتاحة من تلك اللغة ومدى تأثيرها في النفوس. ومن المعلوم أنه حتى في الشعر والنثر الفني هنالك مواطن معينة يَكْمُنُ فيها تأثير ساحر يضفي جماله على سائر العمل الشعري أو الأدبي بفضل عوامل معينة متوفرة في تلك المواطن كما يرى الناقد الانجليزي المعروف أَبَركرومْبي. ويمكن أن يقال عموماً إن أهم تلك العوامل ما يلي:

أولا:– المضمون المقنع.

وثانيا :- المضمون المقدم بأسلوب مميز وجميل
وثالثا :- المضمون السلس الانسيابي الذي يتوقف القارىء لمناقشة أمر شاذ فيه أو التضايق منه.

ومن النماذج الصالحة لبيان أثر تلك العوامل تلك الأقصوصة الطريفة للمقطوعة الشعرية البديعة «قل للمليحة في الخمار الأسود» فقد رُوِيَ أن بائع بزّ (قماش) عَجَزَ عن تصريف مجموعة كبيرة من الخُمُر (أغطية الرأس والصدر) السوداء اللون والتي استثمر فيها رأسماله القليل، فلما أعيته الحيلة دون بيعها لجأ إلى شاعر في المدينة معروف فعاد الشاعر إليه آخرَ النهار بهذه المقطوعة اللطيفة التي أدت الى بيع كل بضاعة ذلك الرجل وبسعر أفضل بكثير مما كان يقدّر أو يرجو :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فَعَلْتِ بناسك متعبد
قد كان شمّر للصلاة ثيابه حتى عَرَضْتِ له بباب المسجد
ردّي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق رب محمد

وقيل إن نساء المدينة وجواريها تقاطرن على ذلك البائع لا ينشدن إلّا خمره السوداء حتى نفقت جميعها لتكون كل منهن تلك المليحة التي ألهت عابدا عن عبادته بحسن منظرها في الخمار الاسود...

والمضمون في هذه الاقصوصة الشعرية كما نرى سهل ومقنع، والأداء سليم طريف، وعذب سلس.

لكن علينا أن نعلم أن الاسلوب السهل الشائق يجب أن يكسو مضمونا مقنعا ومحببا، وكذلك فان جدوى المضمون الجيد قليلة إذا كان أسلوب التقديم خشنا جاسيا، أو حوشيا منفرا.

ويبقى الضبط الاعرابي في كل عمل أدبي جزءاً لا يتجزأ من ضبط الشكل أو الاسلوب، ذلك بأن الموسيقى الشعرية الداخلية في مقاطع نثرنا الفني والخارجية أيضا في قوافي الشعر تلعب دوراً في مجمل الأثر الجمالي لبلاغة لغتنا ورسالتها الخالدة.

القرآن الكريم ذلك النمط الأوحد والأعظم

لا يبقى للغة الفصحى تراث ولا ثبات على قياس، ولا عنصر حافظ لوجودها ضامن لديمومتها مؤكد لعبقريتها وتفوقها واقتدارها على التجدد لو وهن النمط القرآني أو ضعف

أثره وقداسته في النفوس.

ان الارتباط بين المضمون والشكل في القرآن الكريم هو حامل سرّ الإعجاز الإلهي في ذلك الكتاب الكريم. انه ارتباط قياسي جمالي وموسيقي، وهو الجزء الأساسي من عبقرية القرآن وخاصيته وبلاغته، وسر تأثيره ودوامه وانتشاره، وهو ارتباط أقوى من العوامل المغيرة للزمان والمكان والمناسبة. ومن شاء مثلا فليقرأ في كتاب ككتاب الاعتبار لأسامه ابن منقذ من القرن السادس للهجرة، ولينظر بعده عن سهولة الفهم والتذوق السريع رغم كل طرافة موضوعاته، وليقارن ذلك بالنمط القرآني، وليرِ كيف لا تشيب للقرآن ناصية من الدهر، ولا يختلف له أثر ولا جرس ولا وقع. هذا وإن كتاب الاعتبار ليهون أمره كثيرا إذا قيس بكثير جداً ممّا أُلِّف قبله وبعده.

القرآن هو نمط العربية الأسمى وهو الذي ترك ويترك آثاره جليةً في كلام المسلمين وكتاباتهم وسائر أنشطتهم التعبيرية. إنك لتجد الرجل العاميّ من المسلمين يقولها لك في مناسبتها قولةً متقنةً معربة «انا لله وإنا إليه راجعون» أو «قل لن يصيبنا إلّا ما كتبَ الله لنا» أو «ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى» إلى مئات التعابير التي تلقى للسامع صحيحة معربة من أناس عوام.

ومهما تكن بلاغة المحللين وقدرة الناقدين فإن سرّ عظمة القرآن هي من سرّ الله جل جلاله. فالقرآن مضمونا يحوي إشارات علمية وأساليب علمية منها ما يختص بالأجنّة، ومنها الفلك والطب وعلم الاجتماع. ومنها الأحياء والنبات وكل ما يختص برسالة القرآن الأولى وهي التذكير بأساس الوجود الانساني ومصيره ودلائل ذلك في كل ما بنفس الانسان وخلقه وما يحيط به... وهو يحوي المثل الاعلى للسرد القصصي المؤثر السلس المتوازن، وللأداء الأدبي المعبر في وصف الكون ومرائي الخلق وبدائع القدرة.

واذا ما دخل الناس عصر السرعة والأداء الخاطف فذلك له أنماطه القرآنية المعجزة سهولةً وحركةً وسرعة أداءٍ وإفهام واذا ما جنح أهل العلم والنزاهة والبحث الى هدوء المنطق وتمهّل التعبير وإحكام القول، فنماذج ذلك المثلى منتشرة في كتاب الله كما في سور الانبياء والحج والنحل مثلا، وليس هناك أدنى شك بأن النمط القرآني له أسلوبه المتميز في كل اتجاه، وأن الإعراب أمر أساسي فيه وليس عَرَضيا لارتباطه الوثيق بمعاني العبارات ومعنى التركيب العام والموسيقى الداخلية للتركيب العربي، وأين قولك بالعربية السليمة

أحببْ حبيبك بعضَ الحب، وهذا التشويه الذي استحدثته الترجمات السقيمة من لغات الأمم والذي يقال فيه احببته الى درجة كبيرة أو درجة متوسطة.

الإعلام والقرآن وتراث الفصحى

إن خطورة الإعلام في علاقته بالفصحى أمر لا يحتاج الى دليل، ويوم كان القرآن هو أداة التعبير الاولى المفضلة في إعلامنا كان القرآن يهيمن بنمطه التعبيري على كتاباتنا وخطبنا وسائر أشكال أدائنا الشفوي والخطي وكان النمط القرآني هو الذي يضفي سحر الابداع على تآليفنا، ولقد وصل الأندلسيون في شعرهم ونثرهم حداً لا مزيد عليه من الأداء الجمالي العظيم بكثرة ودقة اقتباسهم وتضمينهم من القرآن الكريم.

إن على أجهزة إعلامنا أن تعاود اعتبار التعبير القرآني مثلا أعلى للنمط السليم الجميل من الأداء، وعليها أن تضمن إيجاد أفضل العناصر التزاما بذلك النمط وتأثراً به، وإحكاما للأداء على نهجه إعراباً وأسلوبا ومضمونا، ولا شك أن تبني الأمة جميعا النمط القرآني هو مما يوجد الجوّ العام المعزز والمهوّن للدور القيادي للاعلام في هذا السبيل. إن على صحفنا ألا تدع حتى الاعلانات التجارية تمرّ دون رقابة وضبط على وفق نمطنا القرآني الاسلامي. وعلى مناهجنا التربوية، وسلوكنا العملي في المدارس والمعاهد أن يندرجا تحت رسالة القرآن ويضمنا الأخذ المؤثر بالنمط القرآني.

أن مكاننا على الأرض، وقدر أنفسنا، وقدرتنا على الحفاظ على الوطن مرتبطة جميعا بالديمومة الناشطة لمشخّصاتنا الثقافية وعلى رأسها القرآن الكريم مثلنا الأعلى في كل مجالات حياتنا الاعلامية وغير الإعلامية، فعسى الله تعالى أن يهدينا لمقطع الحق في هذا الأمر وهو حسبنا ونعم المولى ونعم النصير.

تعقيب: عقب الدكتور محمود ابراهيم– مدير الندوة– بعد كلمة الأستاذ أحمد العناني بقوله:

الواقع أن ثمة الكثير مما يمكن أن يقال في ندوة كهذه. ولكن ما من مشارك في ندوة، الا وهو يشعر بعد انتهائها بانه لم يقل الا القليل بالنسبة الى ما كان يعتمل في ذهنه. وقد كنت أودّ ان تنتهي الندوة بالحديث عن مقترحات وتوصيات محددة بالنسبة الى الموضوع الذي نعالجه، موضوع دور أجهزة الاعلام في إشاعة العربية الفصيحة. ولكن لعل من المفيد أن تكون مثل هذه الاجابات منبثقة عن تساؤلات يتقدّم بها الاخوة والاخوات من المستمعين، لعل تساؤلات كهذه تستوجب بان يجاب عليها بمقترحات وتوصيات محدّدة.

سؤال:

كيف يمكن أن نجعل الناس في البيت والمجتمع والبيئة المحلية يتكلمون اللغة الفصيحة؟

أود أن اقول للاخ السائل إنه حتى في زمن امرىء القيس وأصحابه من شعراء المعلقات لم يستعمل الناس في احتياجاتهم اليومية لغة المعلّقات واللغة الفصيحة في أعلى مراتبها. كل ما هنالك، كان ثمة نوع من التقارب ما بين اللغة الأدبية ولغة الحياة. ولا نتصور مطلقا أنّ الناس في أيّ عصر من العصور كانوا يتكلمون في حياتهم اليومية، اللغة الأدبية الراقية التي نقرؤها في المخلّفات الشعرية او في المخلّفات الأدبية الاخرى. فالرسول عليه الصلاة والسلام تحدّث أحد اصحابه في حضرته وأخطا في اللغة، فقال لأصحابه الآخرين: «أرشدوا اخاكم فقد ضلّ». ونحن لا نقف ضد التيار الطبيعي، ولا يمكن أن اتصور، وانا مدّرس للغة العربية منذ مدة طويلة، أن اذهب الى صاحب الفرن لاشتري الخبز باللغة العربية الفصحى، أو لاشتري الفاكهة باللغة العربية الفصحى، لأن هذا الامر مخالف لطبائع الأشياء. ولذا فإن الذي نهدف اليه هو:–

أولا : أن يكون ثمة نوع من التقارب، عن طريق أجهزة الاعلام، ما بين العربية الفصيحة والعامية، لكي تصبح العامية شكلا من أشكال اللغة المفصّحة القريبة

من اللغة العربية الفصحى، على الاقل في ألفاظها، اذ إنّنا لا يمكن أن نشكل مفردات اللغة في حديثنا اليومي.

ثانيا: أن يألف الانسان العربي اللغة العربية الفصيحة فيما يسمعه ليل نهار من أجهزة الاعلام، لكي يستطيع عند اللزوم أن يتحدث بها دون تلعثم، وأن يفهمها وأن يستعملها تلقائيا كتابة وقراءة وحديثا، وأن يستوعبها استماعا. وأظن أن هذا أمر ممكن جدا. واذا استطاعت أمم أخرى أن تفعل ذلك بالنسبة الى لغاتها اليومية، فنحن بلا شك قادرون على ذلك. وهنا أذكر أنني كنت في ندوة سنة ١٩٧٨ في تونس، وتحدثت في الندوة عن اللغة العربية الفصحى، فقام أحد إخواننا من تونس ليقول، إن كان لابد من لغة عربية تستعمل في حياتنا، فلتكن العربية العامية، لأنها لغة الحياة، ولأنها أكثر حرارة، فالعربية الفصيحة كما قال، هي لغة قد ماتت وتجمّدت ولم تعد لها علاقة بحياتنا. وقبل أن أردّ عليه، وكان المؤتمر يضم رجالا ونساء من أقصى بلاد الشرق الى أقصى بلاد الغرب، قامت امرأة بولندية لتقول له: إنك مخطىء فيما تقول. فنحن في بولندا نستعمل في حياتنا اليومية لغات ولهجات مختلفة، ولكن لنا لغة قياسية واحدة مشتركة فيما بيننا، وهي اللغة التي تجمع بين أبناء بولندا جميعا. فالذي نريده إذن، أمر معقول وممكن وعملي. نريد التقارب بين العامية والفصحى، ونريد الألف ما بين الانسان العربي والعربية الفصحى.

وأذكر في هذه المناسبة أن هنالك أطفالا في هذا المجتمع، بعد أن استمعوا الى مجموعة من المسلسلات العربية الفصيحة، أخذوا يتكلمون بعربية فصيحة تقليدا لما سمعوا. وقد سمعت طفلا في السادسة والنصف من عمره يقول بصورة تلقائية: «لا تنبس بنت شفة»، دون أن يشعر أنه يتحدث بلغة غير عادية.

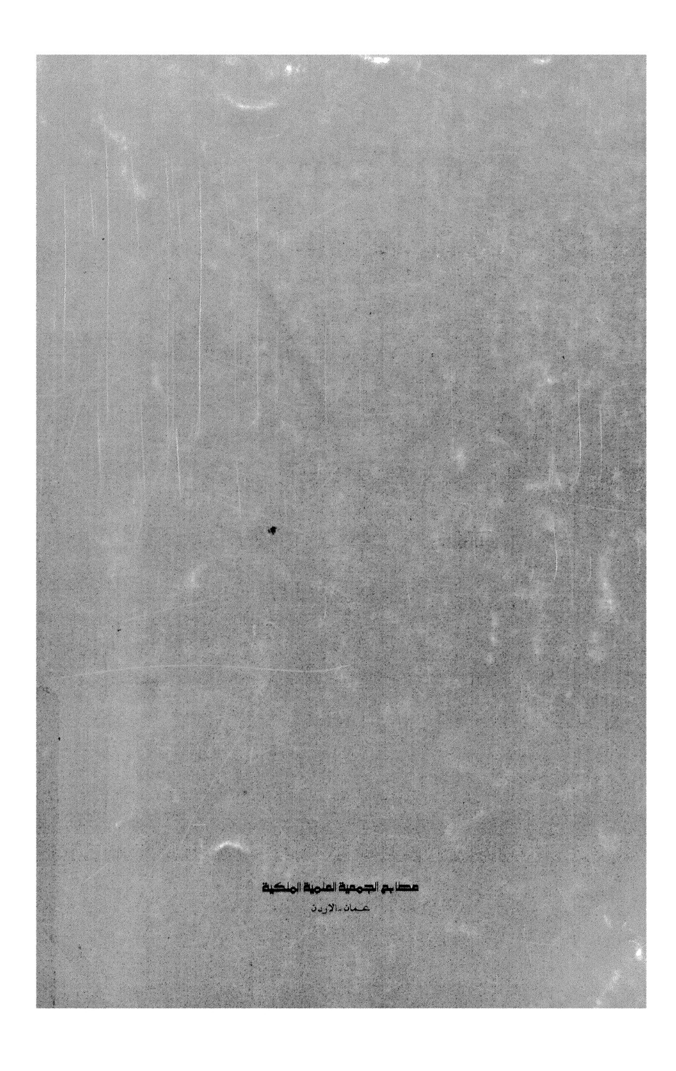
الخاتمة:

في ختام لقائنا هذا، أكرر شكري العميق للزميلين الكريمين الأستاذ محمود الشريف والأستاذ أحمد العناني، ولكل أخ وأخت منكم، ولا سيما أولئك الذين تقدّموا بتعقيبات على هذه الندوة، أو تساؤلات حول ما جاء فيها.

الفهرس

– المحاضرة الرابعة

نـــدوة


مطابع الجمعية العلمية الملكية
عمان - الاردن